

•  
•



كان محمد شاباً فقيراً الحال، مات أبوه وهو لا يزال حدثاً صغير السن، فكان يمضي أيام صباه وربيع عمره في العيش مع والدته العجوز، في كوخ صغير، يقبع في زاوية منسية، في ضواحي إحدى المدن الكبرى التي كانت مزدهرة في غابر الأيام وسالف الأزمان والأوان. وبما أنه كان وحيداً يتيم الأب، لذا فقد احتضنته أمه العجوز التي بدت على عينيها الغائرتين لواعج حزن وأسى، وعلى محياها المتهدل حفرت السنون أخاديد عميقة، فبدى كرقعة أرض خطها محراث فلاح خبير، يروي حكاية ماض تولى، وأرذل عمر قارب يقنى!. أما محمد ابنها الشاب الذي فقد والده مبكراً، فقد نسبه الناس إلى أمه وأصبحوا ينادونه بـ محمد بن العجوز. وفي أحد الأيام، وبينما كان محمد عائداً من عمله في سوق المدينة وقد نال التعب والإعياء من جسده النحيل، قاده قدماه المتناقلتان - ولأول مرة - إلى طريق يسير بمحاذاة قصر ملك المدينة المنيف، فوقف يتأمله ملياً وقد بهره القصر ببهائه وروعة بنائه، وقف يقارن بينه وبين كوخ أمه العجوز. وبينما كان محمد يخوض في بحر زاخر بالخيالات والوساوس، حانت منه فجأة التفاتة نحو الأعلى، وكم كانت دهشته عظيمة لما شاهدته عيناه المتعبتان فوق سطح القصر... يا إلهي...! ماذا أرى؟!... ماذا هناك؟

نعم... هناك حقاً على السطح منظر مثير! حري بالمرء أن يحبس نفسه عن الطعام والشراب، وأن يمرر من أجله لحظات من عمر الزمن، ليملاً خلالها عينيها، من منظر فتاة حسناء رائعة الجمال، تتهدى على سطح قصر أبيها الشامخ بدلال زائد! وتتمايل بقامتها الميساء يمنة ويسرة، كأنها سيقان قمح تداعبها نسيمات الصبا العليقة، في صباح يوم ربيعي زاهي الألوان، دافعة بخصلات شاردة من شعر ذهبي يتراقص على جبينها اللجيني، كأموج مياه تتلاطم بارتخاء على رموش عينيها نجلاوين، كأنهما سفينتان تتأرجحان بخيالهما المرسوم من بعيد على صفحة مياه بحر ساعة الغروب!. أوبدت لناظريه، كغزالة شاردة تاهت عن قطيعها في جوف سراب ساحر يتراقص مع خيوط إشعاعات شمس تسطع من بعيد، وسط صحراء ممتدة بلا حدود، وكمراهقة دغدغ الحب عواطفها، فبدت تتخيل فارس أحلامها وهو آتٍ من بعيد محمولاً على أجنحة الخيال وسحر الحلم الجميل!.

يا إلهي...! لقد طار صواب محمد واختل توازنه أمام جمال الفتاة وسحرها الأخاذ، فهم بها حباً من النظرة الأولى، وهو يعلم أنها لا بد أن تكون ابنة ملك هذه المدينة المترامية الأطراف ولذا فتوبها - وكما يقال - ليس من ثوبه، وهو دونها منزلة وقدرًا. ولكن - وعلى أية حال - فكلاهما ابن لهذه المدينة ووالد الفتاة هو مليكها،

وبالتالي فهو ليس غريباً عنها أبداً، وقد يشاء الله أن يحقق مراده، وما يقدره الله لا يبطله أحد. أسر محمد ذلك في نفسه، وهو يتابع طريقه مسرعاً، يحث الخطى نحو كوخ أمه العجوز، تتصارع في ذهنه الأفكار والوساوس، وتتناوبه نوازع من اليأس والرجاء. وفي إحدى زوايا كوخ أمه الصغير، انزوى محمد متعباً.. كاسف البال.. حزناً، يفكر بفتاة القصر التي سلبت له قلبه وأخذت عليه مجامع قلبه. ولكنه سرعان ما جنح به الخيال بعيداً، فعاودته فكرة غريبة تتخطى كل الأعراف والحوارج الاجتماعية السائدة آنذاك، حينما سولت له نفسه المثقلة بالأمال والأحلام اللذيذة، أن يرسل والدته العجوز لتخطب له ابنة الملك التي شغف بها حباً، عندما رآها لأول مرة كغزالة بريئة تدرج بخيلاء فوق قصر أبيها المنيف. وحينما عادت الأم العجوز - وكعادتها - من إحدى زياراتها المتكررة للجيران، ووجدت وحيداً الأثير على نفسها في حال يرثى لها، فساورها الفلق والهواجس، وبدأ الألم يعتصر قلبها المكلموم، حينما سألته بدهشة واستغراب: ما بك يا وحيدى العزيز؟ فليس من عادتك أن تعود إلى البيت وأنت على هذه الحال، فماذا جرى لك؟ وما الذي يشغل بالك اليوم يا بني؟ أبك - لاسمح الله- وجع وسامة؟ أو أن أحداً ما قد أهانك وأنت عائد إلى البيت، فاعتراك بسببه غم وكآبة؟ اعتدل محمد في جلسته حينما سمع كلام والدته العجوز وبدا أمامها كطفل صغير حائراً مرتبكاً وهو يرنو إليها بطرف عينيه الزائغتين، ليخبرها كيف أنه رأى لأول مرة ابنة ملك المدينة الحسنة وهي تدرج كحمامة قلاب، حطت لتوها فوق بناء شامخ بكل نعومة ودلال! رآها حينما كان يمر صدفة ظهر ذلك اليوم المشهود بمحاذاة ذاك القصر الجميل، وأخبرها كيف أن حب الفتاة الأسر قد مس شغاف قلبه، فأفقدته توازنه وهو يرنو إليها من بعيد، ثم استوى محمد جالساً يتابع مخاطبة أمه يقول لها - وبدون موارد أو مقدمات -: أريدك أن تذهبي الليلة يأمام، إلى ذلك البيت الكبير، لتطلب لابنك الوحيد يد حمامة السطوح دون تردد، وتخطبها من أبيها الملك وعلى سنة الله ورسوله، وقد آليت على نفسي بالأأذوق - بعد اليوم - طعاماً ولا شرباً، وسوف لن تهدأ نفسي الشائرة مالم أظفر بالزواج من ابنة الملك الحسنة، التي أحببتها بكل جوانحي يا أمه!.

ذهلت العجوز مستغربة إصرار ابنها على الزواج من بنت ملك المدينة دفعة واحدة! ولكنها - وتحت ضغط وإلحاح ابنها الوحيد - راحت تلملم أذيالها ميممة شطر البيت الكبير، تقدم رجلاً وتؤخر أخرى، تنتابها ألف فكرة وفكرة، ترى! هل سيوافق الملك على استقبالها في داره؟ وكيف سيكون ذلك الاستقبال إن كان يريد استقبالها أصلاً؟ أم أنه سيمتنع عن مقابلتها وسيردها خائبة على الأقل، إن لم تكن بقسوة؟ أم... أم... أم؟

وعندها لا بد للأمم العجوز من أن تنسل من القصر، لاهثة محبوسة الأنفاس، كعصفور صغير أفلته القدر لتوه من براثن نسر عملاق، كاد أن يطبق على عنقه الصغير بمخالبه المخيفة.

ثم، ألا يحتمل أيضاً أن يلقي الملك بابنها - ودون - تردد في غيب سجن قد لا يخرج منه إلا جثة هامدة محمولة على نعش الموت بذلّ وتعاسة، أو ربما بادر الملك إلى

قتله على الفور لجرأته على تخطي الحواجز الاجتماعية، وخطبته لبنات الملوك وهو ليس سوى ابن لعجوز منسية، في أعتام زوايا هذه الحياة ومناهاتها المظلمة!.  
طرقت العجوز باب القصر الكبير بأيد خانقة مرتجفة، ووقفت تنتظر وجلة أمام باب ليس من شيم العجائز مثلها طرقة. وحينما فتح الباب وأوصلها الحراس إلى قاعة العرش - وبخلاف ماكانت تتوقعه - بادر الملك لاستقبالها بترحاب ظاهر، فأحسن استقبالها في ديوانه الكبير، بين أعوانه وحاشيته، وفي أروقة قصره الكبير، ولشد ما أدهش الملك مسلك العجوز وجرأتها غير المعتادة عندما رآها، وهي تجلس على استحياء فوق البساط المخصص لجلوس من يودون خطبة كريمته الحسناء، صاحبة العصمة والصيت!.

حينها أدرك الملك مقصدها، فاقترب منها واضعاً يده على كتفيها، بعدما افتر ثغره عن ابتسامة سمحاء وسألها بود ظاهر: أجنث خاطبة أيتها العجوز؟! ردت العجوز وهي ترفع جفنيها المضطربتين بحذرتقول: ن...ن... عم، رو...حي فداؤك! نعم فقد جنتك... خاطبة يامولاي...! وعذراً إن كان عجوز مثلي لا يجيد التكلم مع أمثالك من الملوك الهمام، أصحاب الشأن وعلو المقام! ولأأكتم عنك الأمر يا مولاي، فأنت مليكنا وتاج رأسنا، ثم صممت العجوز برهة خوفاً من عاقبة الموقف وسوء المصير... لكن الملك ربت برفق على كتفها طالباً منها الكلام وأنه مستعد لتلبية كل طلباتها الساعة وبدون تردد، عندها تشجعت العجوز وقالت: نعم، فقد أرسلني محمد إبنى الوحيد، إلى هذا البيت الكبير، طالبة يد ابنتكم المصون على سنة الله ورسوله، وأرجو... الله - تتلعثم العجوز في كلامها - ألاترد عجوزاً مثلي... كما.. سفة... خا.. خانبة... يا مولاي...! هنا أطرق الملك أمام العجوز متظاهراً بالروية والتفكير، ولكنه سرعان ما رفع رأسه معنناً موافقته على طلبها، وسط اندهاش العجوز واستغرابها! طالباً منها أن تعود أدراجها على الفور، لترسل إلى القصر محمد إنها الطموح! ليتفاهما معاً على شروط الزواج من فتاة هي ابنة ملك كبير، حسناء رانعة الجمال، عذبة الثغر، حلوة الشمانل، سائلة حسب ونسب، وللتحاور معه في إجراءات تتطلبها أعراف ذلك الزمان وسالف العصر والأوان. خرجت العجوز فرحة من القصر وهي تطلق ساقبيها المتهدلتين للريح، تسرع الخطى نحو كوخها الحقيقير، تحمل أخباراً سارة إلى ابنها الذي بات ينتظرها هناك بفارغ الصبر، وبكثير من القلق والإضطراب. تلقى محمد الخبر بفرح غامر، وسرعان ما أخذ يتحسس طريقه إلى القصر بخطى ونيدة، وهو نهب موزع بين الشك واليقين، يحدوه الأمل والتصميم على الوفاء بكل متطلبات هذا الزواج الغريب! وذلك الحلم السعيد، وشرطه المريب. ولدى وصوله البيت الكبير، نهض الحراس يشرعون له الأبواب على مصاريعها، وهو يدخل باباً إثر آخر، حتى انتهى به المقام إلى قاعة العرش الكبير، فنهض الملك يستقبله بكثير من الحفاوة والتكريم، وأجلسه في المكان الذي يليق بأمثاله من طالبي يد ابنته الجميلة، التي مست شغاف قلوب رجال المملكة وشبانها بحسنها وجمالها الأسرين. اقترب الملك من ضيفه الطموح واضعاً يديه على كتفيه برفق ثم قال، وهو يتأمل في عينيه الحالمتين: اصغ إلي جيداً يا بني، لا مانع لدي من تزويج ابنتي ممن

يقدمون على خطبتها من شبان المملكة الجسورين من أمثالك، ولكن عليك أن تعلم أن كريمتي الحسنة ليس مهرها أموالاً ولا حلالاً، بل هو شرط وحيد.. ولا غير، أعرضه على من يتقدمون لخطبتها والزواج منها، والشرط هو، أن يأتيني الخاطب بتفاصيل قصة غريبة يسميها الناس هنا بقصة "سين وگولی"، قصة طالما تناقشتها أسنة الناس، واستمتعت بفصولها الذهن والحواس، فقد أرقني النوم ذكرها، وتاقت نفسي إلى سماع فواجعها ومآسيها، فإن أتيتني بها زوجتك إبنتي على سنة الله ورسوله، وأصبحت صهري وواحداً من عائلتي وآل بيتي، وإن لم تأتني بها، فسأهدر في المملكة دمك، وأطيح بالسيف رأسك، ولن تشفع لك في هذه الدنيا شجاعتك، أو جلدك، وبأسك.

وبما أنني أراك يابني! شاباً لاتستحق مثل هذا المصير المفزع - ولهذا فسأعطيك مهلة تراجع فيها نفسك، ولتتأكد من مخاطر مما أنت مقبل عليه، حيث سيكلفك الفشل فيه رأسك وحياتك، ففكر في الأمر جيداً يابني، ووجدك أنت ستقرر ما ستختاره بإرادتك؟ فإما أن توافق على شرطي اليوم طائعاً، أو أن تنكص إلى البيت راشداً. إلا أن محمد اختار - ودون تردد - الموافقة على شرط الملك العجيب، وأبدى استعداداً لتنفيذه ولو كلفه ذلك حياته ورأسه، بل وكل شيء في هذا العالم سيهون أمام عينيه لحظة نجاحه في الاختبار وفوزه بفتاة أحلامه الحسنة. وحينما أعلن محمد موافقته على شرط الملك العجيب، عندها أمسك الملك بيديه، وأخذ يطوف به أرجاء القصر ويريه غرفه العجيبة غرفة.. غرفة، ولم يلبث أن استوقفه أمام باب قصر كبير، فقال وهو يتأمل أمامه: انظر يابني! أترى هذا القصر المنيف؟ وهذه الغرفة الكبيرة فيه؟.

- نعم أراه يا مولاي!

- إيه بني...!! إن هذا القصر مليء بالعجائب والأسرار، وتلك الغرفة الكبيرة لم يتسن لأحد مشاهدة ما في داخلها، ولن - وفي العادة - يفتح بابها سواي أحد من الناس. قال الملك ذلك، ثم تابع يطوف مع الشاب الطموح في ردهات القصر وغرفه الكثيرة، وأمام الغرفة الكبيرة، أوقف الملك ضيفه العتيد! ماداً يده إلى جيبه ليخرج منه رزمة مفاتيح، ثم انتقى منها مفتاحاً ضخماً الحجم، وقبل أن يلج المفتاح في باب الغرفة الكبيرة التفت إلى محمد يخاطبه قائلاً: هذه الغرفة التي تراها ماثلة أمامك يابني...!! هي ملاءي بجمام لشبان كانوا جميعاً مثلك في مقتبل العمر، وكان يحدهم الأمل والطموح للظفر بالزواج من ابنتي الحسنة الذائعة الصيت، ولكنهم خابوا في مسعاهم وأخفقوا جميعهم في جلب مهرها الذي هو شرط وحيد ألقيته عليهم، ولكنهم جميعاً عجزوا عن الإيفاء بهذا الشرط وهو - كما أعلمتك يابني - قصة غريبة جرت أحداثها المثيرة في مكان ما من هذا العالم الغريب!. حينها لقي الشبان الطامحون مصيرهم المحتوم، واحتز سيفي البتار رقابهم، فذاقوا مرارة الموت والحسرة تملأ قلوبهم!. هنا أنهى الملك كلامه وأدخل المفتاح في باب الغرفة العجيبة وأداره بقوة، وحين فتح الباب، أصيب محمد بالدهشة والذهول لهول ما رأى! لقد شاهد أمامه جمام تتكوم كأنها تلال على أرضية الغرفة الكبيرة، حيث قاد أصحابها حظهم العاثر

إلى طلب الزواج من ابنة الملك الغريب الأطوار، فلم يوفقوا في الإستيفاء بشرطه العجيب، فقطع الملك رؤسهم بشكل مأساوي مرير! كان محمد يتلفت حوله ذاهلاً وهو يتأمل الجماجم التعيسة الحظ، فرآى بعضها وقد انسلخت جلودها، وزالت عنها لحومها، فباتت عظامها الجوفاء، وبعضها بدت وكأثما انتزعت لتوها من بين اكتاف أصحابها، فلا يزال اللحم سليماً لم ينل منه البلى بعد. ورغم هذا المنظر المهول والمشهد المخيف، شد محمد حاجبيه نحو الأسفل، مبدياً موافقته على شرط ملكه العجيب ولسان حاله يقول: ذاك قدرتي ياملكي العزيز! ثم استأذنه وانصرف قاصداً كوخ أمه العجوز ليخبرها بما لا يسر به قلب أم ابن وحيد لم يرزقها الله بولد غيره. لم يكن محمد بن العجوز يملك من عرض الدنيا ومتاعها سوى سيفه وحصانه اللذين ورثهما عن أب معدم مثله مات بصمت منذ زمن بعيد، تاركاً خلفه ولداً وحيداً وأرملة عجوز بلغت من العمر عتياً. سيف تركه معلقاً على جدار الكوخ ذكرى لوالده الراحل وحصان مهمل مربوط هناك، ويضع دريهمات لا يقمن أوداً، ذاك كل ما تركه أب كان يعيش على أعتاب الحياة، مهمشاً من حلل الدنيا ومتاعها، لإبن طموح ضاقت عليه الدنيا بما رحبت، بينما أحدثت موافقته على شرط الملك الخطير للزواج من ابنته، صدمة مريرة وجرحاً غائراً في قلب أم عجوز لم تثنه عن رغبته، توسلاتها الحارة ولا العبرات المتساقطة من عيني ذابلتين أناخ عليهما السنون بكلكلها، فمالت عنهما شمس الحياة نحو أصائلها، وبانت على جفنيهما آثار عهود مضي، وزمن إلى غير رجعة ولى، ذاك كان قدراً أقدم ابنها الوحيد - وعلى غفلة منها - على الرحيل نحو طريق مجهول باحثاً عن حلم جميل، يحدوه الأمل والتفاؤل، وتراوده مشاعر وأمنيات يحلم بتحقيقها.

تقلد محمد سيفه و عتاده، وحمل مائه وزاده، وملاً خرجه بما ادخره من ذهب وفضة من عملة ذاك الزمان وما تتطلبه لوازم رحلة طويلة مضيئة، ثم ألقى خرجه على ظهر حصانه السريع، مودعاً أمه العجوز طالباً منها الدعاء والصفح والغفران، وهو يوعدها - بمشيئة الله وعنايته- بعودة ميمونة ظافرة، ثم اعتلى صهوة جواده مرخياً له العنان، هانماً على وجهه في أرض الله الواسعة، تراوده أحلام وأحاسيس، وخيالات ووساوس لأول لها ولا آخر! ترى هل سيحالفه الحظ ولو لمرة واحدة في حياته، فيوفق في العثور على قصة (سين وكولي)، ويحقق حلمه بالزواج من يمامة القصر الحسناء؟ أم أنه سيبوء في مسعاه بالخيبة والخسران، وعندها سيعرض الملك رأسه على سيف الجلاد الذي سيفصله عن جسده دونما شفقة أرحمة، وسيضمه إلى أكوام الجماجم التعيسة والمنسية في غرفة القصر العتيد. جماجم قضى أصحابها نحبهم ضحايا لآمال عراض لم يسعفهم الحياة في تحقيقها .

وهكذا بدأت الأيام تمضي بإيقاعاتها الرتيبة المملة، ومحمد ماض نحو حلم مجهول! وهولا يبرح صهوة حصانه الذي بدا - بعد أيام معدودات من السفر الطويل- مثل صاحبه وقد أنهكه الزمن، وهو يتخطى الشعاب والقفار، ويعتلي الصخور والأحجار، بينما كان فارسه يوقفه بين آونة وأخرى، ليرنو ببصره نحو الأفق البعيد، عله يهتدي إلى علامة ترشده إلى بلاد جرت فيها أحداث قصة مثيرة، والأكثر إثارة منها حينما

يصبح ابن عجوز مثله لايملك من متاع الدنيا سوى سيفه وحصانه وكوخ حقير يضم  
عجوزاً فانية، زوجاً لابنة ملك كبير دفعة واحدة ! مهرها حكاية غريبة، دونها موت  
ودماء !

وهكذا، بينما كان محمد يسير على غير هدى، يسبح بخياله وسط هذا البحر الزاخر  
من الأفكار والوساوس . تمر به الأيام والليالي ثقيلة مضية على ظهر جواد أضناه  
السفر والسرى، ونال من كليهما العطش والكرى، حتى شعر بارتخاء في جسده،  
وبحاجته إلى أخذ قسط من الراحة والنوم، ليتابع بعدها طريقه المجهول المحفوف  
بالمخاطر والأهوال . وفي إحدى المرات، وبينما كان محمد يشد لجام حصانه اللاهث  
من شدة التعب والإعياء يستوقفه برهة ليتلفت ويدور يميناً وشمالاً، عله تقع عيناه  
على شيء ما يتفياً بظلاله، وليقيه حرارة ظهيرة خوصاء لاهبة. وفجأة لاح أمام  
عينيه من بعيد سواد شجرة كبيرة تحيطها بقعة ممتدة أشبه ببحر زاخر، ترامت  
أطرافه واضطربت لججه وأمواجه. عندها أرخى محمد لجام حصانه وراح يستحثه  
الخطى نحو ما تراءى له وما كان يتخيله على أنها خضرة يانعة، وماء نمير، وظلال  
وارفة.

أه... يا حصاني الجميل!...أوصلني على عجل... إلى هناك! فلا بد أن ما رأته  
عيناي، هو ماء جار، ومروج خضراء، وأعشاب ندية، طالما حلم بها كلانا ونحن  
نسير في الفلاة أياما وليالي بل أشهراً عجافاً. فإلى هناك ايها المخلوق النبيل...!  
لعلنا ننال في المكان بغيتنا، ونصيب من الطعام حاجتنا، هيا فقد غالب النعاس أعيننا،  
وشاد سلطان الكرى عرشه فوق أجفاننا. قال محمد ذلك ثم أرخى العنان لجواده  
قاطعاً بما تبقى له من جلد واحتمال، مخاطر الصحاري والقفار يستحثه الخطى نحو ما  
ترأى له بقعة أثرية. ولدى اقترابه من المكان تباطأ حصانه في السير وقد أخذ منه  
التعب والإعياء كل مأخذ، وكأن لسان حاله يقول : إن لم ننل في المكان بغيتنا! وإن  
خاب فيه مسعانا، ولم يكن فيه ما يقيم أودنا، عندها سيكون ذاك آخر شوط لي في  
هذه الحياة يافارسي العزيز!. وحال وصوله المكان كان محمد يتلفت حوله، والدهشة  
تعقد لسانه لمراى هذه الواحة الغناء، وسحر منظرها الاخاذ. فشدته العطش نحو نبع  
ماء زلال، يسيل عذبة رقراقة تحت أفنان دوح باسق الظل، تلتف حوله أشجار عليها  
عرائش نباتات متسلقة يانعة الخضرة والجمال، وبساط من مروج زاهية ذات كلاً  
ندي، تجللها رياحين ذات عبق عطري فواح، تتماوج بتناقل مع نسائم الصبا  
متناغمة مع خيوط أشعة الشمس الذهبية، فيزدهي المكان بالبهجة والحياة وبنفحات  
الورود الذكية، وشذا عطرها الجميل ! . وليؤلف مع نغمات الطيور الصداحة ونقيق  
الضفادع، وصخب الجنادب وأزيزها، سيمفونية الطبيعة الرائعة التي لم تأتلفها أذننا  
محمد من قبل.

لاشك أنها واحة صحراوية وافرة الظلال، لا بل ربما جنة من جنان الله في أرضه،  
تفنتت الطبيعة في إبداعها وبالغت في اظهار حسناتها وجمالها . في وسط هذه الواحة  
الفيحاء، ترجل محمد من جواده، يجرجامه نحو ماء النبع النمير، وما إن شاهد  
الجواد الماء حتى أسرع نحوه وكاد أن يخرج لجامه من أيدي صاحبه المكدود،

فشرب الجواد وارتوى، بينما القى محمد بنفسه في ماء النبع وبدأ يرتشف من مائه بشراهة ونهم، حتى أطفأ ظمأه المزمّن المديد، نظراً لطول إبتلائه وشدة كربه ومصابه. بعدها توجه محمد يشد لجام حصانه نحو شجرة كبيرة باسقة الأفنان، فربط الحصان بأحد أفرعها الكثيرة، ثم تمدد بهدوء تحت أفيائها، وما هي إلا لحظات حتى غالب النعاس أجفانه، واستغرق في لجة سبات عميق، ولكنه لم يلبث أن إستيقظ فجأة على صرخات أفرخ طائر كانت تسمع بقوة من أعلى الشجرة . كانت الفراخ مذعورة خائفة، تصرخ - كمن يطلب النجدة - بهياج جنوني شديد. ولما رفع محمد بصره نحو الأعلى، وإذ بثعبان هائل الحجم يتسلق جذع الشجرة الضخمة، في هجوم مباغت على عش الفراخ ليلتهم ما في العش من أفرخ صغار كوجبة غذاء دسمة، وقد بدا له الثعبان وهو في عجلة من امره، مستغلاً غياب صاحبة العش في رحلة صيد، تجلب من خلالها الطعام لصغار زغب لاتقوى أجنتها الغضة على الطيران بعد

عندها أدرك محمد على الفور، أن الفراخ تستنجد به وتستغيثه، فسل - على الفور - سيفه من غمده، وأهوى به على الثعبان ضربة لازب، فشقه نصفين ثم مزق جسده إرباً إرباً، وراح يطعم منه الفراخ قطعة قطعة حتى أتت الصغار عليها جميعها، ثم عاد إلى رقادته يستسلم للنوم من جديد . ولم يدرك محمد أن الفراخ التي أنقذها ليست سوى أفرخ أنثى طائر (السيمر) العملاق، وهي مخلوقة مخيفة ذات قوة ومهابة، ترتعد لمرآها فرائص المرء خوفاً وهلعاً، وماهي إلا لحظات مضت، حتى حضرت السيمرة الأم في مشهد مهيب! تبدو كأنها خيمة سوداء طارت بها الريح ثم بدأت تهوي من عل رويداً رويداً، وهي تحمل بين برائتها المخيفة فريسة ضخمة، كقطعام لصغارها الذين كادوا أن يصبحوا بدورهم وجبة شهية لثعبان جائع غدار. وبينما كانت السيمرة تهبط بمهابة غير معهودة بدا أمام ناظريها - وبشكل لم يعهدها من قبل - حصاناً ربط بأغصان الشجرة التي تأوي عش فراخها، وأدمياً ممدوداً تحت أفيائها، وهو مستغرق في نوم عميق بكل اطمئنان وراحة بال. فتساءلت في سرها: من يكون هذا المخلوق الثقيل الظل الممدد تحت الشجرة ياترى؟ وكيف سولت له نفسه أن تقتحم أرضها وحماها، وهي التي لايجرو إنس ولا جان، ولا حتى طائربطيرانه دخول مملكتها أو الإقتراب من حمى عشها لمسافات قدلايعلمها إلا الله وحده. أستغربت السيمرة الأمر وإستشاطت غضباً من جرأة هذا الرجل وأقتحامه الصفيق لمملكتها العتيدة دون موافقة منها واستئذان، وخاصة أنها أيقنت في قرارة نفسها أن سبب إختفاء صغارها في مثل هذا الوقت من كل عام، ليس سوى هذا الضيف الممدد الثقيل الظل نفسه.

وأما الآن، فالويل والثبور لهذا القاتل السفاح، فقد ساقه القدر إلى حتفه وأوقعته العدالة الإلهية في شر فعالة، وسأنتقم منه في هذا اليوم المشهود شر انتقام، بل سألقنه وأمثاله من المتطفلين ومصاصي دماء الأبرياء والصغار، وحارقي قلوب الأمهات، درساً في الأخلاق والعدالة الإلهية لن ينسوه أبداً، بل سأعلم هذا السفاح الراقد هنا معنى إحترام الآخرين وحق أطفالهم في الحياة والعيش بسلام دون خوف

أورعب. ولم تتردد السيمرة كثيراً، فما إن فرغت من تصوراتها وهواجسها، حتى عمدت إلى صخرة هائلة الحجم حملتها بين مخابها وحلقت بها في السماء عالياً، لتلقي بهذا الهول المخيف على جسد محمد المتمدد تحت الشجرة وهو غافل له الله وحده!. وفي مثل هذه اللحظة الحرجة من حياة هذا الشاب الطموح وقبل أن تهم السيمرة بإلقاء صخرتها العظيمة، حانت منها - على الفور - التفاتة إلى أسفل، فسمعت فراخها وهي تطلق بأعلى أصواتها صرخات جنونية (شير...شير...شير)... لا...لا... يا أماه، فذاك الشاب النبيل... النائم هناك ما هو إلا محمد... لا تقتليه... لا تقتليه... يا أماه!.

وحالما سمعت السيمرة ذلك من صغارها، ألقت بصخرتها بعيدة، وهبطت من عليائها مسرعة إلى العش تستفسر من الصغار عن معنى صراخهم وماذا يقصدون؟ عندها اقتربوا منها وأخبروها على الفور قائلين: أن ذاك النائم تحت الشجرة، ما هو إلا محمد يا أماه! ذاك الشاب الجليل الذي قدم من بلاد بعيدة، وكان نائماً تحت شجرة عشنا، حينما هاجمنا ثعبان مخيف تسلق الشجرة وكاد أن يصل إلى العش ويبتلعنا واحداً بعد الآخر، فاستجاب لصراخاتنا حينما استنجدنا به فأنقذنا من ذاك الثعبان المخيف! ولولا شهامة الرجل ونخوته، لأصبحنا جميعاً وجبة دسمة في بطن هذا الثعبان الغدار، ولكن اليوم مفجوعة بصغارك، وأماً ثكلى فقدت فراخها وفلذات أكبادها في حادث مأساوي أليم..! ولكن كان من لطف الله بنا أن بعث لنا محمداً، هذا الشاب الشجاع الذي هب لنجدتنا وأنقذنا في اللحظة الحاسمة من موت محقق على يدي ذاك الثعبان المخيف!.

وحالما سمعت السيمرة الخبر السار من صغارها، حتى إنفجرت إساير ووجهها فرحة مستبشرة، وشكرت الله على نجاة صغارها بهذه الصدفة السعيدة، وعرفاناً منها بالجميل، عمدت السيمرة إلى نشر جناحيها الضخمين لتستظل بهما محمداً، وتحميه من حرارة شمس ظهيرة لا فحة وقد بدت تميل نحو أصانلها، طاردة الأفياء بعيدة عن الشجرة الكبيرة، فلعل الرجل يأخذ كفايته من النوم ويستعيد نشاطه من أثر السفر الطويل الذي ارتسم على محياه بجلاء، فبدأ الوجه متفحماً من لفحات الشمس، ومن ثقل لواعج النفس وآمالها.

ولم تمض دقائق معدودات، حتى أفاق محمد من نومه خائفاً مذعوراً، فقد شعر بانه ينام في مكان غريب غير مأوف له، فهو ليس في كوخ أمه العجوز الذي درج على النوم فيه عادة بهدوء وراحة بال، فراح يتلفت حوله يمناً ويسرة وكأنما أحس بشيء غير عادي ينتصب بمهابة فوق رأسه، وعندما رفع بصره إلى أعلى، فيا... لهول ما رأى! لقد رأى مشهداً لم تأتلفه عيناه من قبل قط!. طائر عملاق أفرد جناحيه الكبيرين فوق رأسه بمهابة! لينشر على جسمه - وهو نائم - ظلال سوداء وارقة، كخيمة بدوي ذات الأثني عشر عموداً، وقد نصبت بشموخ وجلال فوق بطائح بادية واسعة الثرى. هكذا بدا له منظر الطائر مهيباً، جليلاً! فاستوى محمد قائماً على الفور، ومد يده إلى مقبض سيفه ليدافع به عن نفسه ضد هذا الهول المخيف، ولكن السيمرة شعرت بحركته فالتفتت إليه تهديء من روعه، وتخاطبه بكلمات

الترحيب والمجاملة، وتشكره على شهامته وحسن صنيعه مع صغارها بكل لباقة ومودة، ولكنها لم تتمالك نفسها كثيراً بسبب الموقف المثير فبدأت تغرق ضيفها الأثير، بأسئلة متلاحقة فتسأل وتقول : من أنت أيها الشاب النبيل؟ ومن أي مملكة قدمت؟ وما سبب وجودك هنا؟ وما الذي أوصلك إلى مملكتي وحمى داري وشجرة صغاري؟ قالت السيمرة ذلك ثم توقفت برهة عن الكلام لتتابع بعدها القول : لا بأس أيها الشاب، فعلى الرحب والسعة في ديارنا... ضعفاً عزيزاً...! وأعاهدك الله أن أكون بعد اليوم طوع بنانك، ورهن إشارتك، تأمر فتطاع، وتطلب فتستجاب. وإنشاء الله - ومنذ اللحظة هذه- سأنفذ كل ما تطلبه مني دون تردد أوتهاون، مادام في جسدي قلب يخفق وعرق ينبض، لقاء صنيع أنجزته وأيادي بيضاء أسديتها لي ولصغاري أيها الشاب النبيل!.

إنتاب محمد فرح غامر - وهو يسمع كلام السيمرة العملاقة - وأدرك أن الله قد يسر له أمره وخفف عنه كربته ومصابه، فأخفض رأسه برهة، ثم رفعه إلى الأعلى ثانية وعلامات الرضى باد على وجهه الجميل، فشكر السيمرة على وفائها، وطيب كلامها، وحسن استعدادها لمساعدته والإستجابة لطلباته، وحمد الله على رعايته له وحمائته من البلاء والمخاطر. ثم تابع يقول : فما دام الأمر كذلك أيها الطائر الوفي، ولاسيما وقد وجدت التفاؤل في عينيك، فسأتجراً على القول : بأنني ما أقدمت إلى هنا إلا لأبحث عن قصة مؤلمة أرغب في سماعها بكل تفاصيلها وآلامها المثيرة، هي قصة (سين وگولی) التي يقال أن خيوطها قد نسجت في بلاد بعيدة جداً! وقد حزمت أمري للوصول إليها مهما عانيت من الويلات والمصائب، ولست أرى ما يوصلني إلى هناك سوى جناحي طائر مثلك ايتها السيمرة الطيبة، ولا أدري كيف ساقني الله إليك وأنا في حالة كهذه قد لاتسر أحداً. ثم بدأ يقص عليها حكايته مع الملك وشرطه العجيب، وكيف إنه -أي الملك- سيقطع رأسه بحد السيف إن لم يجلب له تفاصيل قصة دينك الزوجين الغريبي الأطوار، وعندها فقط يمكنه أن يحتفظ برأسه فوق جسده، وسيحظى بأمنيته الوحيدة في هذه الحياة، ألا وهو الزواج من ابنة ملك أحبها حتى الجنون، حب مس قلبه من الأعماق، فصورتها لا تكاد تفارق مخيلته، إن نام حلم بها وإن أفاق تذكر قامتها الهيفاء وطلعتها الأسرة، كما رآها لأول مرة وهي تتمايل بدلال على سطح قصر أبيها المنيف. وعندما أنهى محمد كلامه نظرت إليه السيمرة بأطراف عينيها، كأنما فوجئت بما سمعته من ضيفها الأثير، فانتابتها في الحال تنهدة عميقة، وأفرج منخريها عن زفرة طويلة حارة، ثم التفتت إليه تخاطبه بحسرة وأسى تقول : آه...أيها الشاب النبيل ! لكم تمنيت - وأنا أسمع ما تطلبته مني - لو أن الثعبان التهم فراخي سبع سنين آخر، ولا سمعت طلباً كهذا من ضيف عزيز مثلك!.

ولن أكتمك السر يا بني! إذا ما قلت لك، أن في مثل هذا الوقت من كل عام، كنت أفقد صغاري الأعزاء في ظروف غامضة، وأنا غائب عن عشهم في رحلة صيد دون أن أدرك سبب ما كان يحدث لهم، فكان قلبي ينفطر عليهم حزناً وأسى، ولم يدر بخلدي أن هذا الثعبان المخيف كان السبب في اختفاء صغاري وفلذات كبدي، كل عام في

مثل هذا الوقت الذي اعتاد فيه أن يستغل غيابي عن العيش كل يوم، وأنا ذاهب في رحلة صيد، فيبادر هذا اللص الجبان إلى التهام صغاري دون شفقة أورحمة! واليوم وبفضل نخوتك وشهامتك أيها الشاب النبيل، فقد رأيت نفسي في أنها بال وأحسن حال، يغمر قلبي الفرح والسعادة، وسوف لن أصبح بعد اليوم أما تُكلى أبداً. قالت السيمرة ذلك بهدوء - وكأنما تريد أن تمحو آثار كلماتها المزعجة على قلب ضيفها الأثير - ثم بدت ترنو إلى الأفق البعيد بعينيها الحادثين يجوب بهما زرقة السماء الممتدة على مرمى البصر، كأنما تتأمل المصير المجهول الذي بات ينتظرها مع ضيف يحمل بين جنبه آمالاً كباراً، ليس لطموحاته حد ولا حدود، ضيف بدا نكداً ثقيل الظل ولكنه ذو نخوة وشهامة، أسدى إليها أياد بيضاء وأنجد صغارها في اللحظة الحرجة، فأنقذهم من خطر داهم وموت محقق، وعليها أن تحرص على ألا يمسه بعد اليوم سوء أو أذى . أما محمد فقد تسمر في مكانه وقد ازداد خفقان قلبه، وبدا جبينه يتفصد عرقاً، خوفاً من أن ترجع السيمرة عن وعودها له نظراً لصعوبة الوصول إلى المكان المطلوب، وهي وسيلته الوحيدة وأمله المرتجى في نيل غاياته وتحقيق أحلامه وأمانيه، فسأل السيمرة بهدوء وهو مسبل الجفنين مقطب الجبين، كمن يخفي في دخيلة نفسه نوعاً من تفاؤل مشوب بالحذر ليقول : إليك يعود الأمر أيها السيمرة الوفية فانظري ماذا ترين الآن؟ ولكني أرجو الله ألا تتركيني لوحدي أواجه مصيري الذي لازلت أراه بانساً في خضم هذا العالم المجهول؟. اكتفى محمد بهذا الكلام الوجيز، وبدا ينتظر جواب السيمرة الذي سيقدر - ولا شك - حياته ومستقبله معاً، وقد استبد بمحمد قلق وإضطراب شديدين، وحالة من الترقب والحذر، قبل أن ترفع السيمرة رأسها لتقول بهدوء وتودة:

- لا تأس أيها الشاب العزيز، فلقد بذلت لك وعودي، رغم ما أعلمه أنها وعود محفوفة بالمخاطر والصعاب، دونها شدائد وأهوال لا يعلم عواقبها إلا الله وحده. إن (سين وگولي) يا بني، هما زوجان غربيي الأطوار! يسكنان قصراً عجيباً في بلاد بعيدة جداً، تقع وسط سبعة أبحر محيط مترامية الأطراف، لانهاية لمياهها ولا قرار، لا يدركه طائر بطيرانه مهما طار وابتدر، ويعجزه الوصول إليها جن أو بشر . هكذا شرحت السيمرة لضيفها العزيز، ثم استدركت تهز رأسها تخاطبه بالقول : هون عليك الأمر يا بني - وكما أسلفت - فقد بذلت لك وعودي وسأنفذ ما وعدتك به حتى النهاية ومهما كانت العواقب علي وخيمة، فليس مثلي ممن ينكرون الجميل لحظة وقوعه، ولكن اصغ إلي جيداً أيها الشاب الجليل : فما عليك إلا أن تعود - ومن اللحظة - إلى بلدك التي منها قدمت، وتجلب لي منها مونة رحلة طويلة مضيئة، وهي سبع إليات من سبعة كباش سمان، وسبعة تنانير خبزاً، وسبع قراب من ماء زلال، وهو زادي الذي سيوصلنا معاً إلى بلاد اسمها (سين وگولي)، بلاد بعيدة محفوفة بالمخاطر والعجائب!.

لم يتردد محمد في تنفيذ أوامر رفيقة دربه فاعتلى ظهر جواده، يستحثه الخطى مرة أخرى نحو كوخ والدته العجوز التي فارقتها قبل أشهر مديدة، يجوس خلالها ديار الله الواسعة، يبحث عن قصة عجيبة معرضاً حياته من أجلها لأفانين الشدائد والأهوال.

وأمام باب كوخ أمه الحنون، ترجل محمد من حصانه الذي بدا سهيله يشق عنان السماء! كأنما هو في حالة اشتياق إلى وجه صاحبتة المتهدل فتناديها بملء أشداقها تبشرها بقدم عزيز طالما حلمت بعودته، فتهللت أسارير المرأة العجوز بقدم ابنها الوحيد وراحت تستقبله ودموع الفرح تنهال على خديها الذابلتين، فأخبرها محمد بما جرى له خلال رحلته الطويلة، طالباً منها أن تكتم سره، وإنه لم يعد إليها إلا ليحضر طعاماً غريباً لطائر غريب الأطوار، ليقله على متن الريح إلى أرض سيحقق فيها رغبته وما يصبو إليه ويبتغيه. قام محمد من فوره يمتطي جواده متوجهاً نحو سوق المدينة يحمل معه أحلامه وآماله الكبيرة، ليحلب منها سبع إليات، من سبعة كباش سمان، وسبعة تنانير خبزاً، وسبع قراب ماء، ليعود - بعدها - إلى كوخ أمه العجوز، وهو نهب موزع بين اليأس والرجاء! عاد وترك حصانه يأخذ قسطاً من الهدوء والراحة، في أفياء حيطان كوخ العجوز المتواضع، بعد ساعات النهار التي قضاه محمد في سوق المدينة وهو يشترى طعام رحلة سوف يغامر فيها على ظهر طائر أسطوري عملاق، وبعد استراحة قصيرة في كوخ أمه العجوز، قام محمد وألقى ما جلبه معه من سوق المدينة على ظهر حصانه، ثم امتطى هذا الشاب المغامر سهوته وراح يسابق به الريح في رحلة كلها أهوال ومخاطر. متوجهاً نحو طائره مرة أخرى، نحو عالم مليء بالأسرار والعجائب، يمني النفس بالآمال يرقبها، مودعاً أمه العجوز، طالباً منها ألا يقلقها فراقه، ويحزنها وداعه وغيابه.

هكذا شد محمد الرحال نحو السيمرة العملاقة التي كانت تنتظر قدومه من فوق شجرة عشا الضخم بقلق وترقب ظاهرين، فهي خانفة عليه من مفاجئات الزمان ومخاطر الطريق، وكانت قد تفرغت لتوها من تدريباتها على الطيران الشاق الطويل . وفجأة لاح لها محمد من بعيد وهو يحث الخطى مسرعاً نحو مملكتها العتيدة، ولدى وصوله إليها استقبلته السيمرة بترحاب ظاهر وقد ارتسم على محياها قلق واستياء واضحين، يتماهيان مع هدوء مصطنع ظاهر، فبادرت تسأله ببشاشة ومودة : هاه... حمداً لله على سلامتك...يا محمد...فهل جلبت ما طلبته منك لرحلتنا البعيدة؟ - نعم أيتها السيمرة العزيزة! لقد جئت بكل ما طلبتيه مني، ودون أن أنقص منه شيئاً !

عندها بدت السيمرة في عجلة من أمرها، فأوعزت إليه أن يربط حصانه بالشجرة التي تؤوي عش صغارها، وأن يعتلي ظهرها على الفور مع ما في يده من سلاح ومتاع . لم يتردد محمد في تنفيذ أوامرها على عجل، فامتطى ظهر طائره وقد أصابه شيء من الخوف والإرتباك من المصير المجهول الذي بات ينتظره، وما قد تخبئه له الأيام من مصير يراه قائماً أحياناً، ومشرقاً أحياناً أخرى ! ثم أمرته أن يغمض عينيه وألا يفتحهما إلا حين تأمره بذلك، وأن يتماسك بأرياشها بكل ما أوتي من جلد وقوة وعزم . أصغى محمد لأوامرها مرة أخرى، وأطبق يديه على أرياش السيمرة بكل عزم وإحكام، وفي لحظة الإقلاع ألتفتت إلى صغارها تستحثهم الصبر، وتوصيهم بالإنتباه والحذر أيام غيبتها من مفاجآت القدر والزمان، ثم إنطلقت في الأعالي هادرة بشموخ وعنفوان، محلقة فوق أجنحة الريح، شاققة طريقها نحو

السماء بصلاية واندفاع، ومحمد على ظهرها مغمض العينين خائف يتقرب، لا يرى تحته أرضاً مفروشة ولا فوقه سماءً مسقوفة. وبعد طيران طويل وصعود متواصل، أصدرت السيمرة أوامرها إلى ضيفها العزيز ليفتح عينيه المغمضتين بهدوء، وسألته بكل رقة ولطف: ها... محمد... ألا زلت ترى تحت قدميك بقعة من الأرض؟

فتح محمد عينيه ونظر إلى أسفل منه فشعر برعب متزايد وقال:

- نعم، تبدو الأرض لي هناك كبحر واسع الاطراف !.

- آه... يا ضيفي العزيز... فلازلنا بعيدين عن مبتغانا، ولا زال أمامنا طيران شاق وطويل. قالت السيمرة ذلك ثم طلبت أن يلقي في فمها إلية كبش، وتنور خبز، وقربة ماء، فألقى محمد في فمها إلية كبش، وتنور خبز، وقربة ماء، كما طلبت منه تماماً. ثم أمرته أن يغمض عينيه ثانية، لتعاود الإرتفاع نحو السماء من جديد، وبعد ساعات مديدة من طيران متواصل مرير! طلبت السيمرة منه أن يفتح عينيه للمرة الثانية وسألته:

- الآن كيف ترى الأرض تحت ناظريك يا محمد؟ ألا زلت ترى منها شيئاً ؟

- نعم أراها من بعيد كبساط صغير الرقعة أو دون ذلك اتساعاً .

- يظهر أننا لم نفترب من هدفنا كثيراً بعد... فهيا الق في فمي طعامي المعتاد مرة أخرى . نفذ محمد ما طلبته السيمرة وعاد يلقي في فمها إلية كبش، وتنور خبز، وقربة ماء، ثم طلبت منه - كالمعتاد - أن تغمض عينيه من جديد، ثم تابعت طيرانها بقوة تشق عنان السماء، ترتفع رويداً رويداً، حتى بدت الأرض أمام ناظري محمد كقطعة نقد صغيرة، حينما سألته السيمرة كيف يراها أسفل منه؟ أما في المرة الأخيرة فقد وصلت بطيرانها إلى علو شاهق حينما سألته السيمرة : إن كان لا يزال يرى تحته من الأرض شيئاً .

- لا، لقد غاب عن ناظري كل شيء ولم أعد أرى الآن أرضاً ولا سواداً.

- إذا أنت لا ترى من الأرض شيئاً يا محمد؟

- نعم لم تعد عيناى تلمحان في الاسفل شيئاً؟

عندها أمرته السيمرة - للمرة الأخيرة - أن يتماسك بأرياشها جيداً، وأن يغمض عينيه على عجل وألا يفتحهما إلا حينما تأمره بذلك . إستجاب محمد لما أرادت، وفجأة ضمت السيمرة جناحيها إلى جسمها وبدأت تهوي مع ضيفها الغريب، كبرق في إعصار خارق القوة، كاد أن يطير لها قلب محمد هلعاً ! لولا جلده وقوة احتمالته، ورباطة جأشه .

ولكن ماهي إلا لحظات حاسمة مرت من عمر الزمن مهولة، مرعبة ! حتى أحس بأن أرجل طائره قد استقرت على ارض ما، وسمع صوت السيمرة، تأمره أن يفتح عينيه . وحينما كان يفتحهما بحذر خوفاً من رهبة المكان وهيبته، الفى محمد هذا الشاب المغامر الطموح نفسه فوق سطح قصر شاهق منيف، لم ير في حياته قصراً لا أبهى، ولا أجمل، ولا أعجب منه قط ، تحيط به سبعة ابحر محيط مترامية الاطراف، تمتد على مرمى البصر، لا نهاية لمياهها ولا قرار، كما وصفتها له السيمرة من قبل تماماً. عندها أو عزت السيمرة لضيفها بالنزول فوراً من على ظهرها، فنزل محمد بحذر

شديد، يقدم رجلاً ويؤخر أخرى، وقد تملكه الذهول والإندهاش من هول الموقف المثير! ومنظر البحار المهيب وغير المألوف من حوله. وبعد برهة استعاد محمد توازنه المعتاد، فالتفتت السيمرة إليه تخاطبه بقولها : اعلم يا بني، إننا نقف الآن فوق سطح قصر (سين وگولى) كما وعدتك تماماً، وعليك ان تتحلى الآن بالانتباه والحذر الشديدين، واعلم أن كل من يدخل هذا المكان قد لايعود منه سالماً أبدا ! إلا من كتب الله له حياة جديدة وعمرأ مديداً، وارجو الله أن تكون من هؤلاء الناجين، وممن كتب لهم العمر الجديد. ثم نزعت في الحال ريشتين من قوادمها، وأعطتهما محمداً وأوصته بقولها : عليك أن تحتفظ بالريشتين، وأن تشبكهما ببعضهما حالما تقع في موقف صعب، أو تصبح حياتك مهددة بالخطر، وإذ ذاك سستجدني إنشاء الله إلى جانبك في الحال، وسأنتشكك مما أنت فيه من ضيق وحرَج، وسأعيدك بطريق السلامة إلى بلدك وأهلك، دون أن يمسك أحد بسوء أو أذى، ففرعيناً أيها الشاب الجليل ولا تحزن، فكن بعناية الله ورعايته. قالت السيمرة ذلك ثم ودعته على عجل وطارت عاندة إلى موطن عشها وصغارها الذين تركتهم وراءها في أرض بعيدة، فهي الآن على أحرمن الجمروفي شوق للقائهم ومعرفة أحوالهم، فقلقت عاندة تسلك مرة أخرى طريق الآلام والمخاطر.

تفاعل محمد بريشتي قوادم السيمرة كثيراً، وخبأهما بين طيات ثيابه وراح يجر رجليه على درج القصر جراً يهبط من درجة إلى أخرى، وقد تصاعد الدم في عروقه، وبدا قلبه يخفق بتسارع شديد، خائفاً من المصير الذي ينتظره داخل ردهات القصر المجهول وفي أعتام زواياه، ووراء عتبات أبوابه الكثيرة !. وقف محمد إزاء ما هو فيه بكثير من القلق والتوجس، وهو يلقي على نفسه أسئلة حائرة ! :

- ترى! كيف سيواجه سكان القصر المجهولين ؟

- وأين سيجد في هذا القصر الكبير ووراء أبوابه المحصنة، هذين الزوجين الغريبي الأطوار!؟.

- وبأية مفاجئة سيستقبلان بها ضعيفاً ثقيلاً الظل مثله؟

- وكيف سيفسران إقتحامه الصفيق لمملكتهكا دون إستئذان وسابق إنذار؟

تلك أسئلة محرجة لم يجد لها الفتى جواباً في ذهنه ولكن لابأس - وكما يقال - ) فالمكتوب على الجبين لابد أن تراه العين). ولكن كان محمد قد حزم أمره على مواجهة ماكتب الله له بكثير من الجرأة والإقدام.

وعند أول باب وجده مشرعاً للقصر، وقعت عيناه لأول مرة على رجل ملتج هناك وقد وخط الشيب رأسه، وعلى محياه ملامح الرزانة والوقار، يجلس بهدوء على بساط مهتريء عفى عليه الزمن، وعلى جنبيه مخدتان غشيتهما الرثاثة والبلى، وفي ركن قصي من أركان القصر - وعلى مبعدة منه - تقف أتان مربوطة على وتد، جرباء الظهر تحوم حولها أسراب من الذباب الكثيف، وهي تهشه بذيلها المتثاقل، وترنو إلى ما حولها بعينين زائغتين، وقد علقت برأسها مزودة ملنت حجارة صماً، بدلاً من العلف الحيواني المعتاد، فبدا منظر الأتان بهذه الحال مثيراً للشفقة والإستغراب معاً !.

دهش محمد لمرآى الأتان الجرباء وهي تقضم الحجارة من المزودة العجيبة، ولكنه سرعان ما أدرك بثاقب نظره، بأن الرجل الملتح الجالس أمامه قد لا يكون إلا الـ (سين) نفسه! ولكن أين هي صاحبتة (گولى) ياترى؟ وما هي قصة الأتان الجرباء الظهر التي تفتتت بالحجارة بدلاً من علف الحيوانات من أمثالها؟! تساءل محمد ذلك في سره، ولاشك أنه رأى نفسه أمام لغز محير، فلم يدرك كنه وجوده، ولا سر رموزه!. لقد كانت أحاسيسه صادقة - منذ البداية - فلم يكن الرجل الملتح الذي رآه جالساً فوق بساطه المهترىء، سوى بطل قصته سين بلحمه ودمه!. استوى (سين) قائماً على رجليه حالما لمحت عيناه في القصر شاباً في مقتبل العمر، يقتحم عليه - بدون استئذان - باب غرفته ويقترّب بحدز من مجلسه، وقد أذهلته المفاجئة وأخذته الدهشة والإستغراب! من سر وصول إنسان إلى داره بدم بارد، واختراقه الصفيق لمملكته وحرمة قصره الحصين . فلا يدري أهو ملك أنزلته السماء سراً؟ أم جن أريد به سراً؟ أم إنس يطالبه ثأراً؟. ولكن - وعلى أية حال - فوداعة منظره قد لا يدل على سوء مخبره.

كان (سين) رجلاً مغواراً وبطلاً صنديداً لا يخيفه الردى، وفارساً يتحلى بباء الفرسان وشهامتهم . ولهذا استقبل ضيفه الغريب بكثير من عبارات الود والمجاملة، وهو يهدأ من روعه، يفتح له ذراعيه ويرحب به قائلاً : أهلاً بك في بيتي أيها الضيف العزيز! ثم سأله على الفور ومن شدة اضطرابه: من أنت أيها الشاب الجليل؟ وما الذي جاء بك إلى هنا؟ أجن أنت أم أنس... أم...؟ . ثم استدرج يقول: ولكن لا بأس عليك يا بني! هديء من روعك، وتقدم نحوي فأنا عمك، وإجلس بجانبى أمنأ مطمئناً، فلن يحصل لك مكروه وأنت بجواري، وفي حمى مملكتي، وحرم داري . جلس محمد بحدز إلى جانب مضيفه الذي بالغ في إكرامه، وقدم له مافي بيته من طعام وضيافة يليق بشاب مثله، وفاتحه بالحديث وحسن المجاملة، ووضع إلى جنبه مخدات يسند إليها جسمه الذي هذه التعب والجهد المتواصل، ليأخذ قسطاً من الراحة والهدوء، عله يعاود اتزانه وحيويته، فينسى وحشة المكان ووعشاء سفر مضمّن طويل. انتاب محمد نوع من الشعور بالطمأنينة والأمن حينما سمع كلمات مضيفه وترحابه به واستقباله الحار له، فجلس في مكانه صامتاً يتفرس فيما حوله ودون أن ينبس ببنت شفة، ما عدا رده على كلمات الود والترحاب الصادرة من مضيفه، ورغم هذا فقد صدمته هول المفاجأة وغرابة المنظر مما يحيط به، ومن حوله. وبعد برهة مزق محمد أستار الصمت فجأة ليقول لمضيفه - وهو خافض الرأس - كأنما أدركه الخجل والخوف معاً مما يفتح به رجلاً اقتحم دون استأذان عليه داره، ليكشف للناس أحواله ويذيع على الملأ قصته وأسراره : قال: لا أخفي عليك أمراً أيها العم - وأنا قادم من مملكة بعيدة - أبحث عن قصة غريبة، وازددت غرابة وأنا أتفرس في كل ما يحيط بي من مشاهد في هذا القصر العجيب! نعم... جئت هنا أبحث عن قصة (سين و گولي) التي طالما حلمت بسماعها من أفواه أصحابها ومعرفة عجائب ما جرى لأناسها وأشخصاها، وأرجو أن تسامحني على فضولي ولجاجتي - كما سامحتني أول مرة وأنا أدخل بيتك وحمى قصرك دون مقدمات واستئذان -

واستحلفك الله أن تعرفني بنفسك وترد على سؤالي ولو أنه لا يحق لي أن اقتحم شخصيتك، وباب خصوصيتك.

فهل أنت (سين) يا عماه؟ ذاك الرجل الذي قطعت من أجله القفار والبوار، وخضت من أجله الأهوال والأخطار، لأحظى برويته وأسمع منه صحة قصته! أفليس ظني في محله... أم أنا مخطيء... أيها العم الوقور؟ (قال محمد ذلك ثم سكت منتظراً جواب مضيفه وهو يأمل أن يتأكد، هل أن جليسه هو سين ذاته أم غيره)؟.

طأطأ سين رأسه وفكر ملياً قبل أن يجيب على سؤوال ضيفه الذي بدا فضولياً أكثر من اللازم، مستغرباً في الوقت نفسه لجأته وتطفله المريبين! وبعد تنهدة عميقة وزفرة حرى التفت (سين) إليه يقول : نعم يا بني، وإيم الله... إن كنت جئت تبحث عن قصة (سين وگولي)، فإن الجالس أمامك ليس إلا الـ (السين) ذاته، بدمه ولحمه. ثم آثر الصمت مفسحاً المجال لضيفه الذي أضحى أكثر جرأة ولجاجة حينما أقنع نفسه بأنه بدأ يقترب من الإمساك برأس الخيط – كما يقال – فسأل مضيفه، معذراً – مرة أخرى – عن تطفله وتدخله في خصوصياته قائلاً : أه... أيها العم... سين ... فأنت اليوم مضيفي الأثير! ولكني – ومنذ مدة – وأنا انظر حولي فلا أرى نصفك الآخر – أي زوجتك (گولي) – فأين هي الآن أيها العم العزيز...؟! وما قصة الأتان الجرباء الظهر التي أراها تقضم حجارة... لا أعلافاً...؟.

ندت عن سين آهة عميقة، حينما سمع هذا الإسم الجميل! (گولي) أي وردة، ولكنها كانت وردة شائكة أدمته في شرفه وكبريائه، وباتت اليوم تذكره بماض كله ألم ومرارة، إلا إنه – ورغم مرارة ما جرى له من محن ومأس – ونظراً لشهامة (سين) وفروسيته فقد بدا أكثر حرصاً على ألا يعكزمزاج ضيفه الأثير، ولنلا يطلعه على ما يعتلج في دخائله من لوعة وأسى، فالتفت ينظر إليه بعينين صقريتين، كادتتا تلتهمانه بنظراتهما الحادة، نظرات تشي بلواعج نفس كامنة، وحزن دفين !. ثم أستدرك قائلاً : أه... أيها الشاب النبيل !. أرى أن القدر قد ساقك إلي لتفتح جراحات قلبي من جديد، ولكن لا بأس يا بني، فسأروي لك قصتي بكل مآسيها وفصولها المحزنة، نزولاً عند رغبة ضيف عز علي راحتته، وشاب توجب علي تلبية حاجته ! ولكنني عاهدت الله يا بني! على أن أقطع بالسيف رأس كل من أروي له قصتي، حتى لا يدري بها على وجه الأرض إنسان، ولنلا تكون سيرة تروى على كل لسان. ولتعلم يا بني أنني لم أت إلى هنا إلا حرصاً مني على شرفي وكرامتي بين الناس، حيث يترانى لي أن الشرف والكرامة هما اسمي ما يملكه إنسان في هذه الدنيا الفانية! ولكنني أنصحك يا بني، أن تعفيني من رواية قصتي على مسامعك وأن تعود أدراجك من حيث أتيت، لأنني ضنين بقتل شاب بمثل شجاعتك وجمالك، وصدقك، ورجاحة عقلك . إلا أن محمد رضي بشرط صاحبه العجيب وأصر على أن يسمع منه القصة كاملة وغير منقوصة، كما أصر يوماً على تنفيذ شرط ملك بلاده العجيب. ولما وجد (سين) إصرار الفتى على سماع القصة حتى النهاية، ذكره- وللمرة الأخيرة- بالمصير المأساوي الذي ينتظره إن هو أكمل له قصته الغريبة، فهو في غنى عن استرجاع ذكراها وتكفيه مأساة واحدة، مأساة عبثت بحياة زوجين، لازالا يتجرعان

كأس مرارتها، ويننان معاً تحت وطأة كلكلها، فهو لا يريد - بعد اليوم - لنفسه مزيداً من مأس قد يعجز في النهاية عن تحملها، ولهذا كان رجاءه أن يتراجع عن مطلبه، حفاظاً على حياة ضيف عزيز ذاق مؤنته، وحقناً لدم شاب يعز عليه إراقتة.

مرة أخرى ، لم يعر محمد إلى نصائحه أذناً صاغية، وأصر على أن يدفع حياته ثمناً لقصة كانت شؤماً على أصحابها، وقد لا يسلم هو اليوم من سوء عواقبها، فهي أشبه بسلاح ذو حدين، إن سمعها قطع رأسه هنا، وإن لم يسمعها قطع رأسه هناك في بلده وبيد مليكه، ألا فليرح نفسه وليسمعها الآن، وليفعل به بعدها مضيفه ما شاء له أن يفعله. وبعد جدال ونقاش بين الرجلين، وحينما أدرك (سين) إصرار الفتى وتلفه لسماح القصة المثيرة وأنه عازم على معرفتها حتى النهاية ولو كلفه ذلك حياته، التففت إليه يقول:

لابأس يا بني! فبما أني وجدتك متلفاً إلى هذا الحد، لتسمع ما هو ثمنه قطع رأسك بكل طواعية واختيار. فما علي - ويكل أسى - إلا أن ألبى رغبتك وأسمعك ما جئت من أجله إلى هنا، فأنت اليوم ضيفي أيها الشاب الجليل، وعلى المرء أن يكون شهماً فلا يخذل ضيفه.

- والان اصغ جيداً إلى ما أقوله يا بني.

- نعم فكلي أذان صاغية يا عمه!

- أترى يا محمد تلك الأتان الجرباء الظهر المربوطة هناك وفي رأسها مزودة ملنت صخوراً وحجارة ؟

- ماذا ؟ صخوراً وحجارة!؟

- نعم... صخوراً وحجارة... يا بني!

- نعم... نعم... أراها... أكمل أيها العم... أكمل! قالها محمد بشيء من القلق والتوتر!

عندها أطلق (سين) من انفه زفرة حارة ومال نحو محمد يقول بمرارة :

- نعم يا بني! إن الأتان الجرباء الظهر التي تراها مربوطة هناك، هي كانت زوجتي (كولي) التي سألتني عنها وعن أحوالها قبل قليل! فبهت محمد وهو ينظر إلى الحيوان الرابض هناك وقد تملكته الدهشة والإستغراب مما سمع ورأى ! ولكن استطرده سين يقول : وكانت (كولي) يوماً ما، زوجة أثيرة على قلبي - أيها الضيف العزيز - أحببتها حباً لم أحبب به أحداً من العالمين، فكانت تبادل حبي بحب من مثله. ومضت الأيام والسنون سراعاً وامضينا معها أياماً ساحرة مليئة بالمودة والسعادة، والإحترام المتبادل بيننا، ونحن نتخذ من هذه الجزيرة المعزولة عن العالم مسكناً ومقراً لنا، وكله أمن وأمان ! هنا قطع (سين) كلامه ولم يستطع الأستمرار فسكت برهة، حتى استعادت أنفاسه المتلاحقة هدوءها مرة أخرى، ثم بدأ يسترسل في الكلام وقد ندت عنه آهة عميقة يقول : أه... يا بني!... ولكن كان حكم الفلك قاسياً علينا مريراً، فأحكم حباله بكل قوة حولنا، وقد لاحت في الأفق البعيد بوادر ليلة ظلماء مدلهمة، فملأت أحاسيسنا بالخيالات والوساوس، ليلة غمرت بسوادها أيامنا الجميلة التي مضت سراعاً كغيوم صيف بددتها رياح ظهيرة لافحة، فمضت الأيام، ومضت مع الأيام سحرها وألقها العذب الجميل !. أدهش الخبر محمداً وأخذته حيرة

شديدة، وبدأت الحياة في عينيه سوداء قاتمة، وبدأ كمن يخوض صراعاً مستميتاً مع أعصابه التي توترت على غير عاداتها ! .  
وبعد توقف قصير تابع سين حديثه المؤثر قائلاً : وكنت يابني!...! الابن الأصغر -  
وأخراً العنقود كما يقال - لملك يحكم مدينة مترامية الأطراف، وقد عاهدت الله - وأنا  
يافع صغير السن- على ألا أتزوج من فتاة رضعت من حليب إنسان أبداً، ولو بقيت  
أعزباً طوال الدهر كله، ذاك عهد قطعتة يوماً على نفسي، وأليت على ألا أحنث به  
وأنا على وجه الأرض حي أرزق .

وفي أحد الأيام سمعت من الأقران، أن امرأة عمي وضعت لتوها طفلة جميلة لم  
ترضع من ثديي أمها بعد، عندها حزمت أمرى سريعاً، فاختطفقتها من أboيها في  
اللحظة التي سمعت بولادتها، بعدما لففتها بقمطات وخرق جلبتها لها خصيصاً من  
سوق المدينة، ثم إنطلقت بها هاربة على ظهر حصاني السريع قاطعاً به  
القفار والبحار، حتى عدت بالطفلة إلى هذا المكان، وأسكنتها في هذه الجزيرة النائية -  
كما ترى - وسط سبعة أبحر محيط مترامية الأطراف! لا لشيء يا بني! إلا لأنى بها  
بعيداً عن بني جنسها من النساء وفعالهن، ثم بنيت لها في الجزيرة هذا  
القصر الشامخ المنيف، وبدأت معها مشوار الحياة، فأرضعتها حليب الغزلان وهي  
طفلة، وأطعمتها من لحومها حينما كبرت، فهي بهذا لم تشرب حليب إنسان قط، ولم  
ترضع من أتداء امرأة، لا بل أنها لم تشاهد سواي إنسان على وجه هذه البسيطة  
أبداً. ونظراً لحسنها وجمالها الفائق فقد اخترت لها اسماً جميلاً، فسميتها (كولي)  
أي وردة .

وبعدما كبرت (كولي) وبلغت مبلغ النساء، تزوجتها على سنة الله ورسوله، وبدأنا  
حياتنا في هذا القصر كأسعد زوجين في العالم كله فكنت أجلب لها - وكما يقال - لبن  
اللبوة في جلد اللبوة، فجل طعامنا من حليب الغزلان ولحوم الطرائد البرية، حينما  
كنت ولا أزال صياداً ماهراً، فرميتي - إن رميت - لا تخطيء هدفها ولا تحيد عنه،  
فكنت أخرج للصيد كل يوم مع شروق شمس الصباح، وأعود في المساء ومعى صيد  
وفير، وكنت يابني! ولازلت أملك حصانين، أحدهما بحراني، أخوض به أمواج البحر  
وعبابه بسرعة لا يجاريه فيها مخلوقات البحر، والآخر هواني يسابق الريح في  
طيرانه، بالإضافة إلى أحصنة أخرى أستعملها للقنص والصيد، وللجريد والترويح  
عن النفس .

وهكذا يابني، كانت تمضي بنا الأيام سراعاً، ونحن نتقلب في النعيم والعيش الرغيد  
وحياة زوجية ملؤها المحبة والتفاهم والإخلاص .

وفي كل مرة كان (سين) يلتفت إلى كولي - الأتان الجرباء الظهر - ويسألها :  
أصحيح ما أقوله يا كولي أم لا ؟ فتجيبه بهزة من رأسها علامة التصديق والموافقة  
على كلامه... (كانت كولي) آدمية بالأصل، ولذا فهي تفهم كل ما يقال لها، ولكنها  
لا تعرف الرد إلا بهذه الطريقة الصامتة وبلغه الإشارات كما الحيوانات الأخرى  
تماماً! .).

ويتابع (سين) كلامه يقول : إيه... أيها الشاب النبيل... ومع مرور الأيام وتصرم الشهور والسنين، وعلى حين غفلة من الزمن، بدأت (كولي) الزوجة الوفية التي لا حليب انس رضعت، ولا رجل غيري في الدنيا رأت، تستهتر بروابط القربى وقدسية الزواج، فتخونني في شرفي وكرامتي بكل ما يحمله إنسان من لوم وخساسة. كان ذلك عندما بدأت - وأثناء غياباتي المتكررة عن البيت - تتعرف على حوت عملاق يسكن بيتاً على مبعدة من هنا لم أشاهده من قبل، بيتاً يقبع بهدوء وراء هذه البحار السبعة، فهامت به المرأة حباً واتخذته لنفسها في السر عشيقاً، واقرنت به زواجاً في شرع الله محرماً، فكانت تقضي معي سحابة نهارها، ومع الحوت سواد ليلها دون أن أعلم من الأمر شيئاً، لقد كانت المرأة تتبع طريقة ماهرة للإلتقاء بعشيقها سراً من وراء ظهر زوج مغفل مخدوع مثلي، يرى كل من على الأرض طيبون مثله، وفي الليل عندما كانت تستعد لزيارة الحوت كانت تتمدد إلى جانبي في الفراش وتظاهر بالنوم، ثم تقوم بوضع خرزة النوم في أذني خفية، إلى أن تطمن إلى استغراق في بحر نوم عميق، لتقوم بعدها إلى حيث خزانة ملابسها، لترتدي أجمل ما عندها من زينة وحلي وثياب، ثم تخرج بعدها على عجل لتمطي الحصان البحراني وتمخر به عباب الماء بكل ما أوتي الحصان من قوة ونشاط، وهي في حالة من اللهفة والشوق للقاء حوتها العملاق وحبيبها المشتاق، فتقضي معه ليلة صاخبة كلها عشق وغرام، ولتمارس - ودون خوف من الله، أو حياء و خجل من البشر- ما حرمه الله على زوجة محصنة مثلها، ثم تعود ادراجها قبل انبلاج شمس الصباح التالي، لتندس مرة اخرى إلى جانبي في فراش الزوجية، فتمد أصابعها بخفة وترفع خرزة النوم عن أذني، حتى استيقظ في وقتي المحدد ولأذهب إلى عملي اليومي المعتاد، كصياد غافل وزوج مغدور لا يدري ما يجري حوله من مصائب الدنيا وموبقاتها، وموبات زوجة آثمة تغضب الله ولا ترضي على وجه الأرض زوجاً، ولا كائناً من كان!.

تابع (سين) كلامه يقول : أي بني! ومع مرور الأيام والسنين بدأت تساورني وساوس وشكوك مزعجة وأنا أتأمل تصرفاتها غير المألوفة، وحركاتها غير العادية، وسلوكها غير السوي، مع زوج طالما أحبها وأحبتة، وبدأت أتخيل في الأسحار وقبيل إشراقات شمس النهار، ومع غدوات الطيور من الأوكار، حركات أياد وأصابع خفية تلامس أذني في نعومة وملاح، دون أن أعرف لها سبباً وإيضاح، وفي مثل تلك الحالات التي تصبح فيها مشاعر الأنسان نهباً موزعاً بين الشك واليقين، حالات جعلتني أفكر فيما يتراءى لي وما أتخيله من هواجس صباح كل يوم يمضي من عمر الزمن بكثير من الرتابة والملل هذه المرة، إلى أن قررت في يوم مشهود من مسيرة حياتنا الزوجية، أن أراقب سلوكها الشاذ وتصرفاتها غير المعتادة، لأسبب قلقها وأضطرابها اللذين سببا لي قلق وإضطراب مثلهما، ولأكشف السر وراء ماتنتابني من الهواجس والوساوس فجر كل يوم، أي قبل أن ترفع خرزة النوم عن عيني سلطانها، وتزيل أحلام الكرى عن جفني أثقال أوزارها.

كان ذلك في غروب يوم ربيعي ساحر الجمال، لملمت الغيوم فيه أذيالها، وبدت أسراب الطيور في السماء البعيد تختفي في غسق الدجى آبية نحو أوكارها، في هذه الليلة العصبية يابني!... بدأنا نحن الزوجان مثل تلك الطيور اللانذة بأعشاشها، نأوي بهدوء إلى فراش نومنا، حيث تظاهر كل منا باستغراقه في نوم عميق، وقد علت من حنجرتينا أصوات شخير مصطنع، ليخدع به كل منا صاحبه الآخر، وبعد لأي أحسست بـ (كولي) وهي تستوي بخفة جالسة في فراشها، وبدت كأنها في عجلة من أمرها، فمدت يدها لتضع على عجل خرزة النوم في أذني كمن يسعى لاستدراك ماتبقى له من زمن قليل، عن موعد لقائه مع محب أثير! لكنني استغفلتها ومددت يدي على الفور على خرزة النوم أسحبها من أذني، حتى لا يسري مفعولها كالسهم في جسدي فتأخذني عندها سنة نوم عميقة لأتمكن أن أستفيق منها إلا بعد أن ترفع هي بيديها الخرزة من أذني، ورحت أراقب تحركاتها وأنا على فراش نومي الدافئ الوثير، رافعاً بهدوء جفني المطبقين على عيني جفاهما النوم، وأضناهما القلق والأضطراب. فوجدتها تسرع نحو خزانة ملابسها، وبدأت تسدل على قامتها الهيفاء أثواب الحرير والديباج، وترش على جسدها أفخر أنواع الروائح والعطور، وترخي شعرها الكستنائي على صدر ناهد، وناصية مسبلة، فوق جبين عال تخط أسفلها حواجب سوداء مقلمة بكحل سبحاني بديع، فتبدو - سبحانك يارب - لناظرها كغزالة برية جرجت من خدرها، أو كأنها البدر في ليلة تمامه...!

استكملت (كولي) زينتها، وخرجت على عجل تمتطي ظهر الحصان البحراني، ماخرة به أمواج البحار وعبابها، ولكني لم أفوت الفرصة على نفسي هذه المرة، فنهضت مثلها من فراشي على عجل وأسرعت إلى حصاني الهواني أحرره من مربطه، وأمتطي ظهره على عجل أسبق خلفها الريح، بينما استبد بي الدهشة والإستغراب، من سلوك هذه المرأة الطائش، وهي تجوب وسط هذه البقعة الموحشة من العالم، بقعة لا يسكنها إنس ولاجان، ولاطير أو بشر، ومع هذا فهي غير خائفة ولاوجلّة...!

مضت المرأة في حال سبيلها وعيني ترقبان حصانها البحراني، واضعاً إياه تحت ناظري، لأرى إلى أي مملكة ينتهي المطاف بهذه المرأة الجريئة وهي تمخرع باب بحر مترام الأطراف، وسط ظلمات ليلة كهذه، سوداء مدلهمة! ولأكتشف بنفسي السرالمكنون وراء خروجها من بيتها وحيدة في مثل هذا الوقت المتأخر والمريب من الليل! هذا السر الذي لا يعلمه إلا الله وحده!

وبعد مطاردة طويلة يابني!... وجدت (كولي)، وهي تحط رحالها أمام ساحل بحر يرين عليه صمت موحش وكئيب!... فترجلت - على الفور - عن ظهر حصانها البحراني، وربطته هناك بشجرة ضخمة نبتت على حافة الماء ببهاء ووقار، ثم أسرعت تحث الخطى نحو هدف لا أتبينه، فربطت بدوري حصاني الهوائي الطائر، على مبعدة من مربط حصانها البحراني حتى لا تراه (كولي) فتفسد علي مرامي وخطتي، ثم سرت خلفها أتتبع خطاها على عجل، وتبعت سوادها وهي تسري كشبح لا يغيب عن ناظري أبداً. فآه... أيها الشاب الجليل! فكم كانت دهشتي عظيمة

عندما رأيت ( كولي ) وهي تقف أمام باب بيت كبير - فوجئت بوجوده هنا لأول مرة - وتخرج من جيبها مفتاحاً أولجته في قفل باب البيت العتيق ففتحته، ثم ولجت على عجل داخله، وحينما وصلت بدوري مشارف البيت الكبير رحلت أخفي جسمي وراء حيطاته الحصينة، أقرب أذني من إحدى نوافذ البيت الواسعة أسترق السمع، وأجبل النظر داخل الدار بين فينة وأخرى، لأرى ماذا عساها أن تفعله هذه المرأة الغريبة الأطوار هنا؟ ومن هو ساكن هذا البيت المنيع القابع وسط هذا الخلاء الموحش البعيد؟! البيت الذي بدا لي أن ( كولي ) كانت تستغفني في كل ليلة، فتزور ساكنيه من وراء زوج مغفل مثلي!. - توقف هنا سين عن الكلام قليلاً ثم تابع يقول: أه... أيها الشاب الجليل... ولكن لم يكن أمامي في مثل هذا الموقف العصيب إلا أن أصبر وأتمالك أعصابي حتى أعرف السر العجيب، وراء مثل هذه المرأة العجيبة، في مثل هذا البيت المدهش والباعث على الإستغراب فعلاً! ولأخفي عنك أمراً يابني، إذا قلت لك، أن ضربات قلبي بدأت تتزايد بعنف شديد، وتوارد الدم إلى عروقي بغزارة، فأحسست بعصية زائدة تجاه هذا المشهد المثير، الذي لم يدر في خلدي أن أراه أبداً، أو حتى مجرد أن أتخيله في يوم من الأيام.

هنا قاطع (سين) كلامه، ثم ألتفت إلى ( كولي ) يسألها بعينين خفيضتين : أصحيح ما أقوله يا كولي أم لا ؟ فتجيب الأتان الجرباء الظهر بهزة من رأسها موافقة على صدق أقواله، بينما دموع غزيرة تنهمر من عينيها الحانرتين، وقد بدت عليهما علامت أسى وحزن دفين . تابع (سين) يسرد قصته المثيرة لضيغه الفضولي الذي بدا وهو يصغي اليه بانتباه وذهول شديدين! بينما يذكره (سين) بين فينة وأخرى بالمصير المأساوي الذي بات ينتظره إن هو أكمل له قصته حتى نهايتها، عله يكفي بهذا القدر منها، ويتراجع عن إصراره بالوصول إلى نهايتها المحزنة، ولكن أصر محمد على أن يسمع القصة منه كاملة، وليقضي الله بعدها أمراً كان مفعولاً. وإزاء إصرار الفتى وعناده كان لا بد أن يكمل (سين) قصته فيقول : وفجأة هالني مشهد ما رأيت !. لقد سمعت - يابني - صوتاً هادراً يصدر من أعماق البيت، ويزداد الصوت علواً وصخباً كلما اقترب مني صدره !، فأسرعت إلى النافذة أجوس خلالها غرف الدار وزواياها الكثيرة، فأحسست بالدم يتصاعد في عروقي وتوترت أعصابي بشكل جنوني، من مشهد رأيت فيه (كولي) وقد تسمرت في مكانها قلقة وجلة والإرتباك الشديد باد على محياها، ولم تمض على هذا الموقف المريع لحظات قليلة حتى بدأت ألمح على مبعدة منها حوت عملاق مخيف وهو يقترب منها مزجراً، مهدداً، متوعداً، يرتفع زئيره غاضباً، مثل حوت هائج في لجة محيط صاخب تتلاطم أمواجه بقوة وعنف !. وقد أدركت الآن سر ما يجري في الداخل تماماً، فلا بد أن الحوت هو عشيق المرأة الأثير، الذي تخونني من أجله في شرفي وكرامتي بكل صفاقة ووقاحة !.

أما الحوت فقد وقف أمامها يصرخ في وجهها بغلظة وفضاظة، يعاتبها ويسألها عن تأخرها عن بيتها واولادها، في هذه الليلة بالذات ودون كل الليالي، وبدأ يتهددها ويتوعدها بقوله : لقد أقسمت بالله ثلاثاً، أيتها الزوجة العاق، على أن أعاقبك بالجلد

أربعين جلد، جزاء وفاقاً لتأخرك، وإهمالك لبيتك وبنيك دونما سبب أو تبرير، وسألتك اليوم درساً لن تنسيه مادمت حية ترزقين في هذه الدنيا ! حتى لاتعودين مرة أخرى إلى هذه العادة السيئة، وليكون ذلك عبرة لك ولأمثالك من الأمهات المتقاعسات عن أداء واجباتهن تجاه أزواجهن وأولادهن!.

وهنا يلتفت (سين) إلى الأتان الجرباء الظهر يسألها : هل ما أقوله صحيح يا كولي أم لا؟ فتهز (كولي) الممسوخة الجسد، رأسها مرة أخرى بعينين دامعتين، توافق على ما كل يقوله، ثم تتابع اجترار ما في عليقتها من حجارة صم، فتقضمها بأسنانها وهي ساكته، راضية، صابرة بقضاء الله وقدره، ثم تابع سين يقول: لا أخفي عليك أمراً يا بني، فلقد أصابني دوار شديد وتملكتني دهشة وذهول، حينما سمعت بأذني كلمات من قبيل أولاد وبنين! ورحت أحملق بجنون داخل البيت العتيد، أجيل الطرف في أرجائه، لأرى إن كان حقاً هناك في الداخل أولاد وبنون؟ ويا لهول المفاجئة ! عندما لمحت عيناى أطياف صبية صغار، يطلون برؤسهم من تحت لحف وثيرة، يحملقون بوالديهم، بعيون تملأها الحيرة والإضطراب، وهما يتشاجرون ويعلو بينهما الصخب والصراخ، بين زوجة خانت زوجها في سبيل نزوة عابرة، وقد تأخرت عن موعد لقاء عشيقها الحوت، وبين حوت عاشق استهتر بأعراض الناس وبالقيم والشرف وكل ما هو إنساني ونبيل . وهكذا وصل الأمر بين العاشيقين المستهترين بأعراض الناس وشرفهم إلى حد القتال والتعارك بالأيدي .

أما أنا يابني!... فلم أتدخل في الأمر وأثرت التريث والانتظار حتى تنجلي الموقف وينتهي المشهد المثير المائل أمامي ! رغم نيران الغيرة التي باتت تتأجج بين جوانحي من مشهد خيانة مؤلمة حقاً، مشهد طارلمراه رشدي وصوابي وأفقدني منظره حكمتي واتزاني، لكنني - وكما قلت لك يابني! - فقد تماكنت نفسي، ولم أتسرع في التدخل حتى أوفر لنفسي فرصة لأقرر في النهاية ما أنا فيها فاعله، ولأستزيد من تفاصيل هذا الحدث المثير للسخرية والدهشة معاً!.

وهكذا - ورغم ما أصابني من ذهول واندھاش أمام هول الموقف ومآسيه - فقد تماكنت أعصابي بصعوبة، ورحت أراقب ما يجري داخل البيت الغريب! حينما شاهدت (كولي) ترد عليه بصوت خفيض، فيه الكثير من الازلال والخنوع، من زوجة خانت ، فهانت ! فكانت تحلف له بمغلظ الإيمان وتقول : إنني لست مذنبه في القدوم إليك يا زوجي العزيز، وإيم الله لقد أصاب الأرق ذاك الصعلوك - دون كل الليلي - وهي تعينني أنا الزوج المخدوع - فلم ينم مبكراً كعادته في كل مرة إلا عندما وضعت خرزة النوم في أذنه فنام عندها، وها إنني قد جننتك على عجل ياعزيزي لأقوم بواجبي تجاه زوجي العزيز وأولادي الأحباء، الذين يأخذني الشوق إليهم دوماً وفي كل ساعة ووقت، ولكن ماذا عساي أن أفعله في مثل هذا الموقف؟ فما باليد حيلة يازوجي العزيز.

إلا أن الحوت الغاضب لم يقبل اعتذارها، وبدا كوحش كاسر يرغي ويزيد، ويتلفت يمناً ويسرة، يبحث عن شيء لينهال على (كولي) به ضرباً، عندها أدرك الصغار

خطورة الموقف وأنه أخذ في التأزم بين والديهما، فأقبلوا يتدخلون لدى أباهم ناصحين صائحين : لا...لا...لا تفعلها... بحق السماء... لا تفعلها يا أبانا العزيز! فأمنأ ليست مذنبية ولا تستحق منك هذه المعاملة السيئة، وقد أخبرتك للتو أن تاخرها جاء لظرف طاريء هو خارج عن إرادتها، وأنا لنراها صادقة فيما تقول، ونرجو أن تسامحها من أجلنا أيها الاب الحنون . ثم نهض أصغرهم ونادى أباه ويظهر أنه كان ألمعياً فظناً : انا أدلك يا أبي على طريقة تربيها قسمك ولا تؤذي بها أمنأ. وقف الأب عندها ينظر إلى ابنه الصغير بانتظار ما سيقوله وينصحه به وهو متعجب من جرأة هذا الصبي الصغير، قال الصبي : نعم يا أبي... أترى مكنسة الدار هناك؟ احملها واضرب بها أمنأ، ففيها أربعين عوداً ويزيد، وبذلك تكون قد جلدتها أربعين جلدة دفعة واحدة، وبها تكون، بقسمك قد بررت، وبعهدك قد أوفيت. وبعد قليل من الروية والتفكير، استحسن الحوت رأي ابنه الصغير متعجباً - مرة أخرى - من سرعة بداهته وحسن ذكائه، فعمد على الفور إلى مكنسة الدار، يهوي بها ضرباً على جسد (كولى) محبوبته الأثيرة، وبذلك فقد تخلص من وزر قسمه ودون أن يلحق بالمرأة سوء أوأذى . وهكذا انتهى الخصام يابني بين عشيقين تحابا في الحرام، والتقيا في أعتام الليالي وحوالك الظلام، فتم بينهما الصلح والوئام، دون ذيول أومضاعفات جسام . وهنا بدت (كولى) في عجلة من أمرها، وفي شوق للقاء عشيقها الحوت، فلم تلبث أن ألقَتْ بنفسها عليه فوق فراش الخيانة والعار، ومال الحوت نحوها يلهوان ويداعبان بعضهما، ويتعانقا بحرارة أمام عيني اللتين بدتا تقدحان شرراً، لمشهد هكذا موقف مثير، مشهد بدا يمر أمام عيني بكل مأسية وشروره وتفصيله المخزية!. تفاصيل ليلة سوداء حفرت الأيام ذكراها المريرة عميقاً في ذاكرتي، أيام سكب الزمان فيها كل موبقات الحياة ودناعاتها . كان ذلك يابني في ليلة ليلاء، لم يغمض لي فيها جفن ولم أدق فيها طعم الراحة والنوم، حتى وقت أن فيه الصبح ينبج ، وكان لا بد أن أكظم غيظي، وأشد على أعصابي شداً، حتى لأفسد خطتي في الأنتقام من هذا الحوت اللعين! ومن بنيه أولاد الزنا والحرام! وفي مثل تلك الساعات العصبية من عمر الزمن التي قضيتها وأنا أرقب ما يدور في ثنايا هذه الدار الموحشة، التي خانتني فيها زوجتي ودنست فيها شرفي وكرامتي، رأيت (كولى) وهي تنهض من الفراش الحرام كعروس زفت في ليلة دخلتها- دون أن تحس باستحياء من الله، أو تهزها نوازع من ضمير! ثم عادت أدرأجها مسرعة لتستغفني- كما اعتادت - قبل أن يحين موعد شروق شمس الصباح التالي، فوجدتها ترتدي - على عجل - أثوابها وزينتها بكل تدلل وفخار، ثم ودعت حوتها والصغار، وعادت إلى الشاطئ لتعتلي سهوة حصانها البحراني، تستحثه الخطي نحو قصر تنكرت فيه المرأة واستخف، لكل الأعراف والقيم الأنسانية النبيلة، سالكة طريق الرذيلة والشر! في سبيل نزوة عابرة ومتعة جسدية زائلة.

أما أنا يا بني!... فقد تسمرت في مكاني حتى وجدت (كولى) تبتعد مسافة كافية عن هذا الدار، دار الرذيلة والشر، عندها عمدت إلى سيفي البتار فجردته بمهابة من غمده، وأقتحمت الدار على الحوت وبنيه الصغار الذين فوجوا بوجودي المباغت فوق

روؤسهم وعدواً يداهم دارهم، ولا أخفي عليك يا بني!... ضراوة ما دار بيني وبين الحوت من صراع عنيف، وعراك مخيف، وكروفر، إقبال وإديار، إلى أن امكنتي الله منه في النهاية، فأهويت عليه بضربة ماحقة! مزقت بها جسده بكل همة واقتدار، وقد زادني قوة وعزماً دفاعي عن الحق، وعن شرفي وعرضي اللذين دنسهما هذا الحوت الشرير بكل صلف ووقاحة، ثم أقدمت على انتزاع رأس هذا الغدار من بين كتفيه، لألتفت بعدها إلى صغاره أولاد الزنا والحرام، فذبحتهم واحداً بعد الآخر ثم قطعت رؤوسهم، ووضعت الرؤوس في خرج ألقيته على ظهر الحصان الهوائي الطائر، الذي يفوق الحصان البحراي قوة وسرعة، فأوصلني إلى القصر قبل (كولي)، وهناك أوثقت حصاني إلى مربطه، ودخلت البيت، ومعني ذلك الخرج الغريب المتقل بعمولته وأوزاره، ففقت بتعليقه على مشجب مهمل مغبر، يبدو وقد نسيه الزمن مثلي مغروراً قرب زاوية منسية في أحد حيطان غرفة نومنا العتيقة، فخلعت على الفور ملابسني التي كانت قد تلطخت بدماء الحوت وبنيه وأخفيتهما في مكان آمن، ثم أويت إلى فراشي، متظاهراً بالنوم بعدما وضعت خرزة النوم في أذني، وكأن شيئاً لم يحدث في تلك الليلة المشؤمة، ولتراني (كولي) - كعادتي - زوجاً نائماً مغفلاً، ولئلا يثير انتباهها شيء غير عادي يكون قد جرى بغيابها في هذا القصر الغريب الذي نكبه الزمن بأهله، فجرت تحت سقفه أحداث قصة أكثر عنفاً وخرابة! فأه...! كم أنت غدارأيها الفلك! فكم أفنيت بيوتاً شيدت؟... وآمال على مذابح أقدارك وئدت، وفرقت أحبباً بينهم المحبة نمت.!!.. هنا التفت (سين) نحو (كولي) ثانية يسألها: أصحيح ما أقوله يا (كولي) أم لاء؟ فتهازأتان الجرباء الظهر رأسها بالإيجاب، ولتعود - كما في كل مرة - إلى مزودتها المثقلة بالحجارة تتحسسها، عليها تجد فيها ما تقيم به أودها، ولكن هيهات فلن تجد فيها سوى حجارة صم، اعتادت أن تقضم فيها طعاماً من ضريع لايسمن ولا يغني من جوع!، واستمر (سين) في كلامه يروي لضيفه ما تبقى من فصول قصته المحزنة يقول: نعم يا بني!... فلقد تسمرت في مخدعي، وتظاهرت بالنوم وأنا مزمل متدثر، أراقب الموقف بأجفان نصف مرفوعة بانتظار مفاجئة ما سيحدث لكلينا في مثل هذا الوقت العصيب، ولم ألبث قليلاً حتى سمعت وقع أقدامها، تقترب نحو الغرفة بايقاعات رتيبة، إيقاعات كأنها صدى دقات قادمة من أعماق زمن مجهول، تخبر بنهاية محزنة لمجد قارب الأفول. وأخيراً دخلت علي (كولي) غرفة النوم، فتوقف صدى الإيقاع الرتيب، فأحسست بالزمن يتوقف رنينه في أذني فجأة! وشعرت - حينها - برعدة قوية تسري في كافة أنحاء جسدي، وانتصب شعر رأسي المتقل بالمتاعب والهموم!، وكان شعراته سياخ من حديد دقت فيه بكل قسوة وعنف، فبدت ترنواي فراشي بفضول لترى، أناثم هذا المغفل أم أنه سهران يفظاً، حذراً من العواقب واحتياطاً لأمر غريب لم تتوقع حدوثه. وحينما أمنت المرأة جانبي وتأكدت من استغراقي في نوم عميق كما تراني لها، بدأت تخلع ملابسها وزينتها، لترتدي ملابس النوم على عجل، ولتندس إلى جانبي في الفراش بكل خفة وهدوء، عندها أطبقت جفني على عيني هرب النوم منهما، هرب الصحيح من السقيم الأجرى! لأوحي لها بأنني لا

زلت مستغرقاً في نوم عميق ، لأرى ما تفعله هذه المرأة الطائش اللعوب، فأحسست - بعد لأي - بأناملها الناعمة ترفع خرزة النوم بخفة من أذني، ثم بدأت تلكزني بمرفق يدها اليمنى في جنبي تستيقظني، فهذا أوان ذهابي للقنص والصيد والكسب الحلال. عندها بدأت أتململ في فراشي، وفتحت عيني متثائباً أصطنع شيئاً من الراحة والهدوء، ثم التفت إليها لأخبرها بصوت أجش، بأنني اليوم مريض و حرارتي مرتفعة على غير العادة، و رحت أتقلب يمينا وشمالا موحياً لها، بأن وعكة صحية قد ألمت بي، وأنا غير قادر اليوم على الخروج إلى الصيد والقنص ، كما هي عادتي في صباح كل يوم. ولزمت مكاني طريح الفراش لأبارحه، مريضاً هذه المرة، ولكن بمرض نفسي عضال أصبحت معه الدنيا و مافيها، أمام عيني سوداء قاتمة، كقاتمة ليل شتوي، حجبت الغيوم فيه سماءه وأقماره، وتوارت خلف الدجى أرضه وأسراره!.

هنا توقف (سين) برهة واطبق جفنيه، متأثراً بتداعيات المشهد الذي بدا يمر أمام عينيه قاتماً مليناً بالفواجع والأسى، ثم عاد يرفعهما نحو الأعلى بكثير من المشقة والتثاقل، لينجليا عن عينين متعبتين، مالت لون بياضهما إلى الإصفرار، وارتسمت على أحداقهما كل مآسي ماضٍ مثقل بالأوزار، وليلتفت إلى ضيفه يقول : لا بأس أيها الشاب الجليل فسأكمل لك ما تبقى من قصتي العجيبة، ولكن يتوجب علي أن أذكرك، بأن ساعة قطع رأسك قد أزفت ، وأنا آسف لما بات ينتظر شاب مثلك، لا أراه يستحق مثل هذا المصير المأساوي الأليم ! ولكن- و كما علمت يا بني - فليس باليد حيلة، وليس للخلاص من القدر وسيلة !.

محمد- بل أكملها ايها العم ، فقد ملأت الحكاية كبدي حسرة، وأجبت بين جوانحي لوعة! أكملها ياعم...! فأنا ما زلت في شوق لسماعتها حتى النهاية، وسأنفذ ما قطعته على نفسي وأنا راض بقضاء الله وقدره، وغير نادم على رأسي من أجل قصة مثيرة، قطعت بسببها البحار والقفار، ومن أجلها ركبت الأهوال والأخطار، واعتليت خلفها الأجواء والبحار. ثم سكت محمد مفسحاً المجال لمضيفه المنكوب ليقول : نعم يا بني! فحينما همت (كولى) بالخروج استمهلتها لحظة، و طلبت منها أن تأتيني بذلك الخرج المعلق على الجدار وتفرغه أمامي بعدما أخبرتها، بأنني كنت قد جلبت فيها يوم أمس - وأنا عائد من رحلة صيد- أربع بطيخات حمر، وقد كنت اسمع- وأنا في بلدي - أن البطيخ الأحمر يلين المعدة ويخفف من أوجاع الرأس وآلامه ، فإلي بها أيتها الزوجة الوفية! لعلي أبرأ مما أنا فيه من مرض واكتآب، يصيبان الصيادين عادة، في مواسم شح الصيد وبواره. لقد صدقت (كولى) روايتي المصطنعة وانعطفت برشاقة، تمد يدها إلى الخرج المعلق بالجدار، ولما أفرغته أمامي، تدرجت أمامها الرؤوس الأربعة على الأرض مضرجة بدمانها ، كأنها رؤوس نعاج قطعت لتوها! لقد كان المشهد صدمة مريرة للمرأة ، فهالها الموقف الرهيب، وتجمدت الدماء في عروقها، وباتت خرساء لاتنطق من هول المشهد المثير! وانتابها رعب قاتل! وحينما انحنت بقامتها المديدة فوق الرؤوس المقطوعة، تعرفت على الفور على رأس حوتها وبنيتها الثلاثة جميعهم، عندها تراجعت المرأة الثكلى في حركة جنونية نحو الخلف

وهي تكتم أنفاسها المتلاحقة وتضع يدها على صدرها، مدركة هول المأساة وخطورة ما حدث، فلم تتردد كثيراً حينما سارعت نحو الخيزرانة السحرية التي كانت مغروزة في سقف البيت منذ أمد بعيد ، فحملتها ومست بها جسمي بقوة وهي تقول : كن كلبا عفوراً، يدور من بيت إلى بيت، ومن تنور إلى تنور، عيناه على الابواب ، ومأواه أفياء الحيطان، ومأكله نفايات الطعام وكسرات الخبز اليابس.

فتحولت من فوري - وكما أرادت - إلى كلب ضال، أتمدد على الدوام تحت أفياء حيطان القصر وشرفاته، تلقي إلى (كولي) بكسرات خبزها اليابس، أقتات به سحابة نهاري، وأبيت على الطوى سواد ليلي، وأنا أتأمل على الدوام في عجائب هذه الدنيا الفانية التي أدارت لي ظهرها، وغمرتني بمآسيها وشقائها !.

وكعادته التفت (سين) نحو (كولي) يسألها : أصحيح ما أقوله يا (كولي) أم لاء ؟ فتنهز (كولي) - في كل مرة - رأساً دار عليه الفلك دورته، وأثقل الزمن عليه عثرته، فتوافقته على كل ما قال، بل على ما هو أت ليقول !. وبعد لحظة من الهدوء والتوتر، أطلق (سين) من أنفه زفرة حارة، كأنما أراد أن ينفس عما بداخله من ألم ومرارة، ليقول : إيه... بني!. وفي أحد الأيام، وبينما كنت - كالعادة - ممدداً تحت أفياء القصر الذي حرمتني الأقدار من كل شيء فيه، إلا من أفياء بقيت وحدها ترأف بجسم نحيل نكبته المصائب والأقدار، لتحميه من وهج ظهيرة خوصاء لاهبة، استنطال فيها لساني على غير العادة، جراء لهاث عميق لا يعرف التوقف أبداً، أرنو حزيناً إلى مملكتي المفقودة بعينين زائغتين وقد أفقدتهما المحن والمآسي بريقهما، ومالت سراعاً نحو الغروب شمس أصائلهما .

وبينما أنا على هذه الحال - يابني! - وإذ بحمامتين جميلتين تحيطان الرحال في كوة عالية من كوى القصر التي درجت على التفتؤ بظلالها، وقد راق لي استراق السمع إليهما وهما يتجادبان أطراف الحديث، وفي وقت كانت فيه (كولي) في عمل لها غائبة عن القصر، فتناها إلى مسامعي كلام إحداهما تقول للأخرى وبنبرة حزينة مؤثرة : أنظري ... يا أختاه !. أترين ذلك الكلب اللاهث هناك ولسانه يتدلى سافلاً من فمه ؟

- نعم أراه يا أختاه !، فما شأن الكلب ؟ وعم تتحدثين !؟

- آه... يا أختاه ! إن ذاك الكلب الذي ترينه لاهثاً هناك، ليس إلا هوالد (سين) ذاته! وكان زوجاً لـ (كولي) الذي حولته هذه الزوجة الخائنة، بخيزرانتها السحرية إلى كلب ضال - كما ترين - فلوانه يفهمنا الآن ويقوم بمسح الخيزرانة الملقية هناك غير بعيد عنه بجسمه، فسيعود عندها إلى حالته الأصلية - كما كان - بشراً سوياً! ولكنه مع الأسف فهو لا يفهمنا وأخشى أن يبقى هذا البائس على هذه الحال طوال حياته كلها . قالت الحمامتان ذلك ثم طارتا من فورهما.

أما أنا يابني! فكنت أفهم ما يدور بين الحمامتين من حديث وهسيس، رغم أنني بشر يأويني جلد كلب، فانتابني - على إثرها - فرح ممزوج بالحزن والأسى، فقامت - على الفور - إلى الخيزرانة ورفعتها بقمي، وكلما أمسست بها عضوا من أعضاء جسمي، عاد العضو الممسوس إلى حالته البشرية، حتى أمررتها على جسدي كله - والحق

يقال - فقد عدت - وكما قالت الحمامتان - بشرياً سويماً كما تراني الآن أمامك أحادثك وتحادثني، وأول عمل فكرت في إنجازه بعد ذلك - أيها الشاب العزيز- كان هو القصاص العادل من (كولي)، الزوجة التي أقدمت على ارتكاب كل تلك الخيانات المنكرة، رغم أنها لم ترضع طوال حياتها كلها من حليب أنثى إنسان قط .

- وأرجو الله ألا أكون قد أوجعت لك رأسك بمآسي قصتي وفواجعها يا بني - قال (سين) ذلك ثم تابع يشرح ما تبقى من فصول قصته المحزنة لضيفه يقول : فرحت أكن لها على طريق عودتها، في ركن قصي من أركان القصر، أنتظر قدومها بفارغ الصبر لأفاجئها بالخيزرانة السحرية، وأنتقم لنفسي منها شر انتقام، وأقابل صنيعها بصنيع من مثله، فأمسخها إلى صورة حيوان وضعي مثلاً فعلته هي معي يوماً ما .

وهنا أدار سين رأسه بهدوء إلى الجانب الآخر لزم الصمت قليلاً ليتابع بعدها القول : وبعد برهة من القلق والانتظار يا بني! سمعت وقع خطاها يقترب مني رويداً رويداً، وحالما أصبح جسدها في متناول خيزرانتني السحرية، بدأت أنهال بها ضرباً على جسدها وأقول: كوني أيتها الخائنة أتناً جرباء الظهر تغشى ظهرها الذباب، مأواها الزريرة والإسطل، وطعامها الصخور الصم والحجارة. فتحولت (كولي) على الفور إلى ما أردت لها أن تكون، فأصبحت كما تراها الآن يا بني! أتناً جرباء الظهر تغشاها الذباب والهوام، تمضي حياتها خارجاً بلا مأوى في صيف تلهبه اجواء حارة، وشتاء امطاره مدرارة، وفي مزودتها صخوراً وحجارة !. وهكذا كانت هي السبب في ما جرى في هذه الدنيا لكلينا من مأس و عذاب وشقاء، ومع هذا أقوم في صباح كل يوم بتعليق مزودة طعامها برأسها وهي من الحجارة وفتاة الصخور- كما ترى - لتطحنها بأسناتها مادامت لها في هذه الحياة بقية، جزاء من ربها وفاقاً، على ما جنته يدا هذه المرأة بحق زوج وابن عم ضحى بشبابه من أجلها، وفارق الديار والأهل والاحباب في سبيلها، ورغم هذا كله فقد سلكت طريق الغواية والشر، فلم ترعو ولم ترتدع، ولم تخش عقاب الله وتهديده، ولا نار جحيمه ووعيده.

التفت إليها (سين) يسألها مرة أخرى أصحيح ما أقوله يا (كولي) أم لاء ؟ فتعزز رأسها - كالعادة - باستحياء ظاهر وبكثير من الحزن والألم، لتوافق على ما يقوله رجل كان بالأمس زوجها وحبیبها، وأضحى اليوم خصمها وغريمها.

وهنا أنهى (سين) قصته العجيبة والتفت إلى ضيفه العزيز يخاطبه بقوله : والآن أنهيت لك أيها الشاب الجليل قصة من أطرف القصص وأكثرها غرابية ودهشة، تلك قصة (سين وكولي) التي جنت تبحث عنها قاطعا من أجلها البحار والفقار، ورضيت مختاراً برأسك ثمناً لها، وأرجو أن تسامحني يا بني، على ما سيجري لك اليوم على يدي، فقد حان الآن - وحسب ما بيننا - أو ان قطف رأسك، ولكن فلتعلم أيها الشاب الجسور! إنني ما كنت أرغب أبداً في قطع رأس بشري، حباً بالشر ورغبة في إلحاق الأذى بالآخرين، بل كل ما أبغيه يا بني! هو رغبتني في عدم تداول قصتي العجيبة بين الناس، لأحافظ على شرفي وكرامتي، اللذين أهدرتهما امرأة خانت مبادئها، وأفرطت في شرفها وكرامتها أيضاً، في سبيل نزوة عابرة، فاستحقت العقاب الإلهي، ونالت جزاءها العادل على ما اقترفته يداها الأثمتان من خيانة وأذى . أما محمد فقد بدا

مدعنا لما عاهد عليه الرجل، ممثلاً لرغبة مضيفه بنفس مطمئنة راضية، ولكنه طلب من مضيفه أن يمهلته لدقائق معدودات، يسمح له من خلالها بالصعود إلى سطح القصر وحده ، ريثما يصلي ركعتي سنة لله تعالى قيل أن يطيح السيف رأسه، ويودع دنياه الفاتية إلى الأبد، وليلقى وجه ربه، راضياً مرضياً.

وافق (سين) على طلب ضيفه العزيز برضى ورحابة صدر، وهو يعلم علم اليقين أن لا مهرب لأحد من مكان في مثل هذا الحصن الحصين والحرز المكين. عندها ذهب محمد يتوضأ بهدوء ويتجهز للصلاة، ثم صعد سطح القصر فأفرد سجاداته، وبدأ ينوي على صلاة ركعتي سنة لله تعالى، داعياً ربه أن يخرج من هذا المكان سالماً معافى وألا يمسه سوء أو أذى ، ويعدم فرغ (محمد) من صلاته، وضع يده على الفور في جيبه فأخرج منه ريشتي قوادم السيمرة، وشبكهما ببعضهما، كما أمرته بذلك حالما وجد نفسه في عسر وحرج، عندها أدركت السيمرة في الحال، أن (محمد) الذي كان قد أنقذ فراخها يوماً ما من هجمة ثعبان مخيف، وأوصلته منذ أمد ليس ببعيد، إلى بلاد (سين وگولی) بلاد المخاطر والأهوال ! هو الآن - لا محالة - واقع في ورطة حقيقية، وعليها أن تسرع لإنقاذه بدون ابطاء كما وعدته بذلك، فلم تتردد السيمرة لحظة في الإنطلاق نحو السماء هادرة بكل عنفوان وشموخ، تحوم في الأعالي عملاقة مهيبة، تشد الرحال نحو بلاد (سين وگولی) تلك البلاد البعيدة الحصينة، وكانت للسيمرة المهيبة قدرة خارقة على الطيران بسرعات غير عادية! وما هي الإلحظات قليلة حتى سمع محمد رفرقة أجنحة قوية فوق رأسه، وسرعان ما بدت له السيمرة وهي تحط بجسمها الضخم على سطح القصر المنيف، الذي بدا ببهانه كسفر ضخم، حوى بين دفتيه فصول مسرحية محزنة، قربت شمس نجومها الآن حافة الأفول، وبدأ القدر يستعد لإسدال ستار الأبدية والنسيان على أحداثها المأساوية المؤلمة، تاركا للتاريخ والذكرى وحدهما ينقشان أحداثها المريرة في صدور الأجيال المتعاقبة بحروف بيضاء ممزوجة بالدماء والآهات!

أما السيمرة فكانت في عجلة من أمرها، فأمرت محمداً أن يصعد ظهرها مسرعاً ويتماسك بأرياشها جيداً، استعداداً لطيران شاق وطويل!. وقبل انطلاقها في الفضاء الرحيب، استمهلها محمد بضع ثوان ليودع صاحبه (سين) الذي توطدت بينهما ألفة حميمة وصدافة سامية، كما أنه استضافه في بيته أياماً طوالاً فذاق طعامه، وخبزه وماءه، فناداه محمد بأعلى صوته وملوحاً له بيديه، وداعاً أيها العم (سين) !... وداعاً أيها العم الوقور...! فأنا اليوم عائد إلى بلدي، وأرجو أن تسامحني وتقبل اعتذاري على ما بدر مني من إساءة أيها العم المنكوب...!. ولما رفع (سين) ناظريه إلى أعلى ولشد ما أدهشته مرأى ضيفه الأثير، وهو يعتلي ظهر طائر عملاق أو شك أن يحلق به في الأجواء عالياً، وقد أخذ معه تفاصيل حكايته المؤلمة، وأسرار قصته العجيبة. عندها أدرك (سين) أن محمداً قد أفلت من يديه، فناداه متوسلاً إليه طالباً منه التريث قليلاً، وألا ينطلق في الأعالي قبل أن يرى ماذا سيفعله، ثم ألقى بنفسه - وعلى مرأى منه - في لجة البحر المحيط ومات غرقاً، وغاص جسده النحيل في ظلمات الماء العميق، وأضحى طعمة لوحوش البحر وضواريه، وتأسف محمد

لانتحار مضيفه أشد الأسف، ولكنه أدرك بأن ذلك كان قدره، وقد رآه حتم لا يرد!، ثم أفلعت السيمرة طائفة بضيفها بقوة واقتدار، عائدة به إلى حيث سيفه وحصانه، بعد أن سجل في طيات صدره تفاصيل قصة غريبة لزوجين نكبهما القدر في زواجهما، وغمرت مملكة الأحزان حياتهما بكل آلامها وماسيها.

أوصلت السيمرة محمد بن العجوز إلى حصانه الذي امتطى ظهره عائداً به مسرعاً إلى بلاده وكوخ أمه العجوز، وبعد استراحة قصيرة استقبله الملك وحاشيته في قصره استقبلاً يليق بأمثاله من الأبطال الشجعان، وسط اندهاش الجميع وإعجابهم، بقوة واحتمال هذا الشاب الجسور وشجاعته، وبدفاعه المستميت للوصول إلى غاياته ومآربه، وللصعوبات التي واجهته وهو في طريقه إلى المجهول يبحث عن قصة غريبة وأسرار كالأحلام عجيبة. وبعدما أسهب يسرد للملك وحاشيته، تلك القصة المدهشة! التي غامر من أجلها بأعلى ما يملكه في هذه الدنيا، وهما رأسه وحياته، أعلن ملك البلاد، وعلى رؤوس الأشهاد، زواج أبنته الحسناء من محمد بن العجوز وسط فرح غامر انتاب الحضور، واحتفالات مهيبه دامت أياماً وليالي، شارك فيها سكان المملكة كلهم، وكان أسعدهم أمه العجوز!. تلك كانت قصة (سين وگولی) بكل وحشيتها وفضاظتها، وبكل لواعجها والامها. وقد سر الملك كثيراً لسماعها، مستمتعاً بمآسي أحداثها، وخرابة فصولها، حتى ذاع خبرها في أقاصي البلدان، وتناقلتها الأجيال في كل زمان ومكان، وأضحت سيرة تروى على كل لسان.

\* الغلاف الإلكتروني: من أعمال شيرين حجي مصطفى.